الفصل الرابع

الإســـــلام السياســـى

٢ الإسلام السياسى بين الفكر والممارسة.

٣ الدين والشرعية السياسية.

٤ المؤسسات والحركات الدينية فى مصر.

٥ الإحياء الدينى: كيف نخدم التقدم حقا؟

١ مستقبل المنطقة العربية والمتغيرات الدولية.

obeikandl.com

obeikandl.com

الإسلام السياسى
بين الفكر والممارسة

١ـ الجذور القديمة للإسلام السياسى؟

ليس الدين فقط مجرد تغير نظرى فى رؤية العالم، أن هذا العالم أتى من لاشىء وينتهى كما أتى، وأن الإنسان فيه مجرد عابر سبيل يعمل فيه ويجازى فى النهاية قدر الأعمال، وأن وراء هذا العالم المرئى هناك عالم آخر غير مرئى يتجلى فى العالم المرئى ويتحكم فيه.

وليس هو مجموعة من الممارسات فى طقوس وشعائر فردية وجماعية، رمزية الدلالة لحماية الإنسان من أخطار البيئة وقى الطبيعة وشرار الحيوانات حتى يطمئن الإنسان على حياته، ويعيش فى سلام وأمان.

وليس مجموعة من المؤسسات السلطوية لرجال الدين يقومون عليه، يحددون شرائعه وطقوسه، ويعملون كوسائط بين عالم البشر وعالم الآلهة، ولهم قدرات بشرية إلهية فى آن واحد، أقرب إلى المقدس منهم إلى الدنيوى. وتصل ألقاب البعض منهم إلى أبناء الله وأرواح الله وكلمات الله.

وليس انعزالاً عن العالم، والعيش فى مغارات وكهوف، أمام ألسنة النيران

(*) ندوة "الحركات الإسلامية السياسة المعاصرة وأثرها فى الاستقرار السياسى فى العالم العربى، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبوظبى، الإمارات العربية المتحدة ٢٧-٢٨ مايو ٢٠٠١.

ودخان البخور وروائح العطور وإصدار الترانيم واستدعاء الأرواح الطيبة وطرد الأرواح الشريرة وعلاج المرضى واستبدال العالم الروحى بالعالم المادى.

كان الدين باستمرار وسيلة للتغير الاجتماعى والسياسى والثقافى، حركة اجتماعية تعبر عن قوى اجتماعية مضطهدة أو مهمشة فى المجتمع ضد قوى التسلط والطغيان، ونمرود وهامان وأبوجهل وأبولهب وأشراف مكة الذين اتهموا الرسول بتأليب العبيد عليهم.

كان أداة لتحرير شعوب بأكملها مثل تحرير اليهود من قبضة فرعون بقيادة موسى، وخروج إبراهيم وأهله من شمال العراق إلى الحجاز، هرباً من عبدة الأصنام، وتأسيس قواعد لبيت جديد من بيوت الله ليذكر فيها اسمه بدلاً من عبادة الأصنام، كان وسيلة لتجميع القبائل المتفرقة المتناحرة مثل القبائل العربية، وتأليف القلوب، مثل المؤاخاة بين الأوس والخزرج، والمهاجرين والأنصار ﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾، وتجميع القبائل لحمل الحجر الأسود الذى وضعه الرسول فى عباءته، كل قبيلة تمسك بطرف منها، استمساكاً ﴿بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾. فوحدة الأمة انعكاس لوحدة الألوهية.

كان وسيلة لتوحيد الأوطان، وتوحيد الثقافات كما كان الحال فى شبه الجزيرة العربية، توحيد الحنفاء واليهودية والنصرانية وثقافة الشعر خاصة سجع الكهان وشعراء النصارى وشعراء الصعاليك، وثقافة الأمثال الشعبية العربية التى حملت القيم العربية المتواصلة فى قيم الإسلام مثل كرم الضيف، ونجدة المظلوم، وإيواء الغريب، والوفاء بالعهد والثقافة السياسية المتمثلة فى حلف الفضول وصلح الحديبية والاعتراف بها جميعاً ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾، وبتعدد مناهجها وأعرافها وعاداتها ﴿لكل جعلنا شرعة ومنهاجا﴾.

كان وسيلة للتحرر الثقافى، تحرير آدم من الغواية، وتحرير ابن نوح من الحكم على الظواهر الطبيعية بالعلل الطبيعية وحدها، الجبل الذى يعصم من الماء ساعة الفيضان، وتحرير عيسى بنى إسرائيل من طغيان الكهنة وعبدة القانون، ومن

تحويل المعبد إلى تجارة، وتأسيس عهد جديد يقوم على المحبة والطاعة بدلاً من العهد القديم الذى يقوم على الاختيار والاختصاص، وتحرير الرومان من القوة العضلية إلى القوة الفعلية، ومن معالجة الأبدان إلى معالجة النفوس.

فكل إدعاء بأن لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين يقصد به عزل الدين عن السياسة حتى يأمن المتسلط أى حركة معارضة باسم الدين تقضى عليه، وعزل السياسة عن الدين حتى يفعل النظام السياسى ما يشاء طبقاً لمصلحة النخبة السياسية دون مراعاة لشريعة أو قانون. فهو قول سياسى أيضاً على نحو سلبى ضد الصلة الطبيعية بين الدين والسياسة، الدين وسيلة لتحرير البشر، والسياسة أداة لتنفيذ شرائعه. فصل الدين عن السياسة والسياسة عن الدين كما تريد العلمانية المعاصرة هو فعل دينى سياسى فى آن واحد على نحو سلبى كذلك، السياسى الذى يريد أن ينفرد بالحكم دون مزاحمة الدينى له كما هو الحال فى بعض النظم العربية المعاصرة. والدينى الذى يريد إقصاء السياسى إنما يريد جعل الدين حكراً عليه، عالماً مغلق له ملكوته الخاصة دون أن ينافس فيه رجال السياسة.

لقد نشأت العلوم الإسلامية كلها نشأة سياسية اجتماعية فى بيئة سياسية تتحول فيها القبيلة إلى دولة، والنبوة إلى خلافة، والخلافة إلى ملك "الخلافة بعدى ثلاثون سنة تتحول بعدها إلى ملك عضود". وواكبت العلوم الإسلامية هذا التحول الاجتماعى السياسى وعبرت عنه.

نشأ علم الكلام نشأة سياسية حول الخلافة بعد وفاة الرسول نصاً أم بيعه، تعيناً أم اختياراً، عهداً أم عقداً. وبدأ الخلاف السياسى والتنظير له بين القوى السياسية المعارضة، من فى السلطة مثل الأموية التى أفرزت تنظيرها السياسى فى الأشعرية، ومن خارج السلطة مثل الشيعة، المعارضة السياسية السرية التى أفرزت عقائدها فى الإمامة، والمعتزلة، المعارضة السياسية العلنية بالفكر والتى نظّرت لها فى الأصول الخمسة، التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والخوارج، المعارضة العلنية بالسلاح على أطراف

المدن والتى اعتمدت على تنظير المعتزلة فى التوحيد والعدل وأن الإمامة ليست بالضرورة فى قريش. وخرجت عليهم برفض الوسطية فى المنزلة بين المنزلتين إلى الحدية فى الكفر والإيمان، وعدم انفصال الإيمان عن العمل وغياب الوسط بينهما فى النفاق أو الفسوق، وحولت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالنصيحة إلى الخروج على الحاكم الظالم بالسلاح[1].

ونشأ التصوف نشأة سياسية عكسية كرد فعل على التكالب على الدنيا والحكم وحياة البذخ والترف، وصعوبة مقاومة هذا التيار الدنيوى بالفعل بعد أن استشهد أئمة آل البيت، وعزت المقاومة، وحصار العلماء بين العصا والجزرة لمعاوية. فآثر فريق إنقاذ النفس إن تعثر إنقاذ العالم، والإبقاء على الداخل إن صعب العمل فى الخارج، والحرص على نقاء الضمير وصفاء القلب إذا خضع البدن لضرورات الحياة ومقومات البقاء. فبعد الفتنة الكبرى بجيل خرجت مجموعات الزهاد والعباد والبكائين يتحسرون على ما فات أيام الرسول والخلفاء. وعاش أهل الصفة فى آخر المسجد يتحسرون على حال الناس. من هنا خرجت جماعات الصوفية الأولى دون أى تأثير أجنبى، وبدافع داخلى محض.

كما نشأ علم أصول الفقه نشأة اجتماعية صرفة، وقائع جديدة تحتاج إلى أحكام. فكان من الطبيعى أن ينشأ القياس طبقاً لما عبر عنه عمر بن الخطاب "قس الأمثال بالأمثال، والنظائر بالنظائر"، وحديث الرسول لمعاذ وإجابته بالحكم بالكتاب ثم بالسنة ثم بالقياس دون خوف أو وجل. وفى القرآن حديث عن الاستنباط والاجتهاد ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾.

وقد نشأت علوم الحكمة بفضل الدولة، حلم المأمون بأرسطو وحواره معه حول الحسن والقبح العقليين والشرعيين، وتأسيس ديوان الحكمة، وتعيين مترجمين له وعلى رأسهم حنين بن اسحق، وشراء المخطوطات من بلاد الروم ذهباً

---

(١) محمد عبده: رسالة التوحيد، طبعة المنار ١٣٧٣هـ ص ٣-٢٣. وأيضاً كتابنا "من العقيدة إلى الثورة"، جـ١ المقدمات النظرية، الفصل الثانى، مدبولى، القاهرة ١٩٨٨ ص ١٠٠-١٠٢.

من أجل معرفة ثقافات الشعوب المفتوحة، الغرب والروم وليس تدميرها والقضاء عليها كمل فعل الاستعمار الغربى الحديث. وتمثلت الفكر السياسى اليونانى خاصة جمهورية أفلاطون، والفكر السياسى الفارسى خاصة فى "جاويدا دخرد" بجوار الفكر السياسى الموروث فى "الأحكام السلطانية".

وبالإضافة إلى هذه العلوم العقلية النقلية الأربعة: الكلام والفلسفة والتصوف والأصول، نشأت العلوم النقلية الخمسة، القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقه أيضاً بدوافع اجتماعية وسياسية. ضبط القرآن وجمعه أيام عثمان خشية عليه من الخلاف وتثبيتاً للنص موازياً لتثبيت السلطة. وجمع الحديث بعد ذلك بقرنين من الزمان بنفس الدافع تثبيتاً للحديث بعد أن اعتمدت فرق المعارضة على الأحاديث الموضوعة تدعيماً لها. وعلوم التفسير إنما حملت أيضاً نفس الهم، تثبيت تفسير القرآن ضد التأويلات العقلية والباطنية لفرق المعارضة وإبراز الفرقة الكلامية أى عقائد القوة السياسية داخل علوم التفسير حول القضاء والقدر والإمامة. وعلوم السيرة تمت صياغتها كما صاغ أهل الكتاب سير الأنبياء بما أجروا من معجزات بعيداً عن الدور السياسى والاجتماعى للنبى فى الظاهر وفى الحقيقة لرفع الروح المعنوية عند المسلمين حتى لا يشعروا لا بنقص أمام النصارى الذين كتبوا سيرة المسيح[1]. وقد ظهرت السيرة السياسية واضحة فى السيرة المعاصرة، السيرة الليبرالية فى "حياة محمد" و"فى منزل الوحى" لمحمد حسين هيكل و"على هامش السيرة" لطه حسين، والسيرة الاشتراكية فى "محمد رسول الله" لعبد الرحمن الشرقاوى والسيرة السياسية فى "فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين" لخليل عبد الكريم. وأخيراً تمت صياغة علوم الفقه طبقاً لأولويات العصر القديم وظروف عصره، أولويات فقه العبادات على فقه المعاملات. فقد احتكر النظام السياسى المعاملات لنفسه خاصة فيما يتعلق بالنظم السياسية والخروج على الحاكم الظالم[2].

---

(١) هذه هى الإضافة الهامة لنصر حامد أبوزيد فى علوم القرآن.

(٢) انظر دراستنا "تراث السلطة وتراث المعارضة" هموم الفكر والوطن جـ١ التراث والعصر والحداثة ص ٣٦١-٣٧٢.

٢ـ الجذور الحديثة للإسلام السياسى.

لم يكن "الإسلام السياسى" ظاهرة قديمة فحسب بل أيضاً ظاهرة حديثة منذ الإصلاح الدينى حتى الجماعات الإسلامية الحالية. فقد نشأ الإصلاح الدينى بدافع سياسى، ضعف الخلافة العثمانية، واحتلال أراضى الأمة وتجزئتها، وتخلفها عن المدنية الحديثة، وقهرها بالرغم من نظام الملة، ومركزيتها الشديدة مما شجع على استقلال الأمصار ورغبتها فى الانفصال، وأطماع الشرق والغرب فى ممتلكات الرجل المريض، ورغبة بعض الأمصار فى وراثتها مثل مصر فى عصر محمد على ثم بعد سقوط الخلافة فى ١٩٢٤.

كان أكبر ممثل له رائد الحركة الإسلامية الحديثة جمال الدين الأفغانى فى صياغته للإسلام السياسى، الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل، الإسلام من أجل تحرير أراضى المسلمين وحريتهم وفقرائهم وهويتهم وتقدمهم وحشدهم. وقامت الثورة العرابية استناداً إلى هذه التعاليم. ووقف أحمد عرابى فى قصر عابدين أمام الخديوى توفيق قائلاً "إن الله خلقنا أحراراً ولم يورثنا عقاراً، والله لا نُورث بعد اليوم" واستمر خطباؤها وأدباؤها فى المقاومة مثل عبد الله النديم فى السر والعلانية من أجل مناهضة الاحتلال البريطانى لمصر[١].

وخرجت معظم الحركات الوطنية من عباءة الإصلاح الدينى. فالأفغانى هو واضع شعار "مصر للمصريين". ومحمد عبده بالرغم من تنصله من الثورة العرابية هو الذى كتب برنامج الحزب الوطنى. واستمرت الحركة الوطنية المصرية منذ مصطفى كامل حتى فتحى رضوان، من الحزب الوطنى حتى مصر الفتاة مرتبطة بالحركة الإصلاحية وبالإسلام السياسى. وهو الذى صاغ وحدة وادى النيل، وحدة مصر والسودان، والوحدة العربية ابتداء من وحدة مصر وسوريا، ووحدة مصر والمغرب العربى، ونهضة مصر مع نهضة الشرق. وبالرغم من خفوت ثورة الأفغانى

---

(١) انظر دراستنا: "الدين والثورة العربية"، الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢-١٩٨١، جـ٣ الدين والنضال الوطنى، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩ ص ٢٤٥-٣٠٦.

عند تلميذه محمد عبده إلا أن ثورة ١٩١٩ خرجت من عباءته. فقد كان سعد زغلول أحد تلاميذه. وكان أيضاً الجيل الثانى من وراء النهضة من تلاميذه مثل قاسم أمين ومصطفى عبد الرازق وطه حسين. واعترف بهم "الميثاق" فى ١٩٦٣ فى فصل "جذور النضال الوطنى"[١].

وفى المغرب العربى، ارتبطت الحركة الوطنية بالإصلاح الدينى وخرجت منه كما هو الحال فى مصر. وأسس علال الفاسى فى المغرب حزب الاستقلال. صاغ علماء القرويين الحركة الوطنية مع العرش الذى جسد هذا الارتباط بين الوطن والإسلام ممثلاً فى محمد الخامس. وأخذ الجهاد معنى جديد وهو الاستقلال. بل وأخذ الملك فى المغرب لقب "أمير المؤمنين" وانتسب إلى الأسرة الهاشمية كما هو الحال فى الأردن.

وفى الجزائر خرجت الحركة الوطنية أيضاً من جمعية علماء الجزائر. وتدرجت مع علمائها مع عبد الحميد بن باديس، عبد القادر المغربى، عبد الكريم الخطابى، مالك بن نبى. وعندما ضعفت الحركة الوطنية بعد الاستقلال وعادت الفرنكفونية عند النخبة عاد الإسلام حاملاً لغضب الجماهير وتطلعاتهم الاجتماعية ضد الفقر والبطالة. عادت الحركة الإسلامية الاجتماعية، ونالت الأغلبية فى المجالس التشريعية. ثم انقلب عليها الجيش، وبدأ القتال المسلح وثمنه سبعون ألف شهيد.

وفى تونس أيضاً تبلورت الحركة الوطنية بفضل علماء الزيتونة الطاهر والفاضل بن عاشور. كان الناس يقاومون الاحتلال الفرنسى كجزء من الجهاد الاسلامى بصرف النظر عن اتجاههم العمالى والنقابى أو الليبرالى أو الوطنى التلقائى. كما ظهر ذلك فى أدب المقاومة والأزجال الشعبية ومناهج التفسير عند علماء الزيتونة وخطب المنابر ودروس العصر والمظاهرات الشعبية.

وفى ليبيا قامت الحركة السنوسية بالجهاد ضد الاحتلال الإيطالى واستأنفه عمر المختار. كانت المقاومة تنطلق من الزوايا والمساجد معتمدة على الإيمان بالله

---

(١) الميثاق: جذور النضال الوطنى، القاهرة، الهيئة العامة للاستعلامات ١٩٦٤.

وجهاد الكفار. فالاحتلال كفر. والمقاومة من "الكَفْرَة" من جنوب الصحراء. ولما قامت الثورة فى ١٩٦٩ بدافع وطنى قومى كرد فعل على هزيمة ١٩٦٧ وبعد ربع قرن من خفوت المد الثورى واستمراره فى نفس الخطاب السياسى دون أن يترجم إلى أفعال وتغيير ملموس فى الواقع السياسى والاجتماعى والثقافى عاد الإسلام المسلح فى الجبال حول بنغازى حاملاً لحركات الاحتجاج الاجتماعي والمعارضة السياسية.

ولم يختلف المشرق العربى عن المغرب العربى فى ذلك. ففى سوريا نظّر عبد الرحمن الكواكبى لحرية المسلمين فى "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد". وحلل فى "أم القرى" ظاهرة اللامبالاة أو الفتور فى الأمة الذى أدى إلى استكانتها واحتلالها. وركب القومية على الإسلام، وطبق ثقافة الحرية فى الغرب فى واقع المسلمين وتراثهم.

وفى لبنان خرجت حركة المقاومة فى الجنوب من الشيعة وأحزابها ومنظماتها، أمل وحزب الله. وانتصرت المقاومة وتحررت لبنان، وأصبحت نموذجاً يحتذى به فى فلسطين وكشمير وكل أرض محتلة. ساهم السنة والشيعة معاً فى حركات المقاومة والتنظير للثورة الإسلامية الحديثة خاصة فى كتابات "محمد شمس الدين" و"محمد حسين فضل الله" وربما متجاوزين أيديولوجية الثورة الإسلامية فى إيران و"ولاية الفقيه".

وفى اليمن قاد الأئمة الأحرار النضال ضد حكم الأئمة الطغاة، واستشهدوا فى سبيل حرية الأوطان مثل زيد الموشكى. وشارك الإخوان فى عدة ثورات ضد الأئمة حتى نجح الضباط الأحرار، عبد الله السلال أخيراً فى وضع نهاية حكم عصور الظلام. وعبر شعراؤهم وأدباؤهم عن أوضاع القهر والاستقلال. وتعاونوا مع القوميين على إنجاح الثورة وبمساعدة مصر. وبعد الوحدة تشارك الحركة الإسلامية فى الحياة الوطنية، وبينها وبين النظام السياسى شد وجذب كما هو الحال فى طبيعة المجتمعات التى تتحول من التسلط إلى الحرية.

وفى السودان قادت الحركة المهدية النضال ضد الاحتلال البريطانى، محمد أحمد المهدى بما لديه من وسائل قتال تقليدية أمام الجيش البريطانى الحديث. وقتل اللورد غوردون بسهم أحد مجاهدى المهدية. وأصبحت المهدية فى تاريخ السودان الحديث تعادل الجهاد فى سبيل الله. تحول التصوف إلى ثورة بالرغم من انتشار الوهابية وإسقاط فريضة "الجهاد" عند الإخوان الجمهوريين.

وفى فلسطين الآن، تقود حماس والجهاد المقاومة الإسلامية متضامنة مع باقى حركات المقاومة الفلسطينية. وقد كانت فتح فى تكوينها الأول من الإخوان المسلمين الذين ناضلوا فى فلسطين جنباً إلى جنب مع الجيوش العربية فى ١٩٤٨. وكانت ثورة عز الدين القسام فى ١٩٣٦ نموذجاً للمقاومة الإسلامية الأولى ضد الاستعمار الاستيطانى. وقد قامت انتفاضتان فى ١٩٨٧ ثم فى ٢٠٠٠ تحت شعار الأقصى الذى حرك تدنيسه واحتلاله مشاعر المسلمين من أقاصى آسيا إلى غرب أفريقيا.

وإذا كان محمد عبده قد ارتد عن الثورة السياسية وسياسة الانقلابات ضد الحكام لأستاذه الأفغانى بعد فشل الثورة العرابية واحتلال الإنجليز لمصر كذلك ارتد الرشيد رضا تلميذ محمد عبده عن الإصلاح إلى السلفية بعد الثورة الكمالية فى تركيا عام ١٩٢٣ والقضاء على الخلافة، ونجاح جمعية تركيا الفتاة وحزب الاتحاد والترقى فى الوصول إلى الحكم. فقد كانت هناك ثلاثة اختيارات: الإصلاح الذى أدى إلى الاحتلال فى مصر، والعلمانية إلى أدت إلى القضاء على الخلافة فى تركيا. فلم يبق أمامه إلا السلفية يرتد إليها مدافعاً عن الخلافة من جديد فى "الخلافة أو الإمامة العظمى" مكتشفاً محمد بين عبد الوهاب مؤسس الحركة الوهابية فى نجد الذى اكتشف أيضاً ابن تيمية زعيم السلفيين القدماء والمعاصرين فى آن واحد الذى امتدت جذوره إلى أحمد بن حنبل مؤسس الحركة السلفية الأولى بعد أن ذهب العقل والقياس إلى أبعد مدى عند أبى حنيفة والمعتزلة، ووصلت المصلحة العامة عند المالكية إلى القول بالمصالح المرسلة وأن ما رآه المسلمون حسناً فهو

عند الله حسن، وأن المصلحة أساس التشريع كما قال الطوفى فى الأندلس. فالأولى العودة إلى النص الخام والطاعة الأولى للأوامر والنواهى دون تدخل العقل البشرى بالفهم أو التأويل، بالتحليل أو التعليل. وربما كان ذلك بدية انتشار الإسلام "الوهابى" وامتداده إلى باقى الحركات الإسلامية المعاصرة.

وكان حسن البنا تلميذ رشيد رضا فى دار العلوم. تشبع بالروح السلفية. وأراد تحقيق حلم الأفغانى لتأسيس حزب إسلامى ثورى قادر على حمل الايديولوجية الإسلامية الثورية وتحقيق المشروع الاسلامى التحررى. فأنشأ جماعة الإخوان المسلمين على ضفاف القناة فى الإسماعيلية عام ١٩٢٨. وفى خلال أقل من ربع قرن أصبحت أقوى التنظيمات الإسلامية وأكثرها حركة فى مصر وسوريا واليمن والأردن. واستطاع حسن البنا أن يصوغ إسلاماً بسيطاً واضحاً، نظرياً وعملياً، تصورياً حركياً "فرسان بالنهار، رهبان بالليل". ودخل الإخوان فى الأربعينات فى أتون الحركة الوطنية المصرية، جهادهم فى فلسطين فى ١٩٤٨، ومعارضتهم لنظام الحكم الإقطاعى الاستبدادى، الإنجليز والقصر وأحزاب الأقلية. وكانوا يمثلون مع الوفد والشيوعيين بالرغم من الخلاف الايديولوجى بينها، المعارضة الرئيسية للسياسات القائمة فى الأربعينات.

واغتيل حسن البنا فى فبراير ١٩٤٩ بعد إلقاء محاضرة فى جمعية الشبان المسلمين، اغتاله القصر والإنجليز وربما بعض أحزاب الأقلية. وبدأت سلسة من الاغتيالات المتبادلة (النقراشى، أحمد ماهر) ثم الاعتقالات والتعذيب لأعضاء الجماعة. وكما كون القصر "الحرس الحديدى" والذى كان السادات من أعضائه وكون الشيوعيون أيضاً تنظيماتهم السرية كون الإخوان أيضاً "التنظيم السرى" من أجل الاستعداد للتغير السياسى الجوهرى بالاستيلاء على السلطة.

وفقد الإخوان باغتيال الشهيد حسن البنا ليس فقط مؤسس الجماعة بل مؤسسها ومرشدها ومنظّرها وأبيها الروحى. ولم يستطع أحد خلافته لا من القضاة أو المحامين أو الفقهاء أو الدعاة أو الضباط أو السياسيين أو رجال الأعمال. وظل

الموقع شاغراً لمدة سنتين حتى اقتراح أحد أعضاء مكتب الإرشاد اسم "سيد قطب" بالرغم من اعتراض باقى الأعضاء لصلة هذا الاسم الجديد بالعلمانيين، الشيوعيين والاشتراكيين والأدباء، ولأنه ليس من الآباء المؤسسين للجماعة مثل عمر التلمسانى ومنير الدلة والعسكرى وغيرهم، وليس له الثقل القانونى لعبد الحكيم عابدين أو عبد القادر عودة أو الباع الفقهى لسيد سابق أو القدرة الخطابية لمحمد الغزالى أو البراعة السياسية لحسن العشماوى. ومع ذلك تم انتخابه أميناً للدعوة والفكر، وعضواً بمكتب الإرشاد.

والحقيقة أن سيد قطب شخصية فريدة فى تاريخ مصر، وفى العلاقة بين الضباط الأحرار والإخوان المسلمين. وقد ظهرا فى آخر فترة فى حياته، الفترة السياسية. فقد مر سيد قطب بأربع فترات فى حياته. الأولى المرحلة الأدبية فى الثلاثينات عندما بدأ شاعراً رومانسياً يقرض الشعر الرومانسى الوطنى، مثل الشاطئ المجهول عام ١٩٣٤. ثم استمر فى الأربعينات عندما بدأ يكتب أدب الأطفال مثل "أشواك"، "الاطياف الأربعة"، "المدينة المسحورة "، والسيرة الذاتية مثل "طفل من القرية" أسوة بتوفيق الحكيم فى "يوميات نائب فى الأرياف" وبطه حسين فى "الأيام". وصاحب ذلك الإبداع الأدبى النقد الأدبى ابتداء من "مهمة الشاعر فى الحياة" مع تقديم مهدى علام عميد آداب الإسكندرية ثم "النقد الأدبى اصوله ومناهجه" فى منتصف الأربعينات. وفيه يقدم بعض الآيات القرآنية كشواهد ادبية. ثم طبق نظريته فى النقد الانطباعى الوجدانى الشعورى اعتماداً على موسيقى اللغة قبل "الجوانية" لعثمان أمين بعقدين من الزمان فى "التصوير الفنى فى القرآن الكريم" و"مشاهد القيامة فى القرآن الكريم" فى نفس الوقت الذى كتب فيه خلف الله محمد خلف الله رسالته للماجستير "الفن القصصى فى القرآن الكريم" تحت إشراف أمين الخولى، ورفضتها السلطات الجامعية بادعاء إنكار الوقائع التاريخية فى قصص الأنبياء، وهو نفس الاتهام الذى وجه إلى طه حسين فى "فى الشعر الجاهلى" من قبل ونصر حامد أبو زيد من بعد فى "مفهوم النص". وكان من أنصار الجديد ضد القديم، والعقاد ضد طه حسين. وهو الذى عرّف العالم النقدى

بثلاثية نجيب محفوظ.

والثانية المرحلة الاجتماعية عندما اكتشف سيد قطب الجانب الاجتماعي فى الإسلام بعد اكتشافه الجانب الأدبى فى القرآن. فقد كتب "العدالة الاجتماعية فى الإسلام"، مقالاً ثم كتاباً من روح المعركة الاجتماعية فى الأربعينات. وصدر عام ١٩٤٩ يربط فيه العدالة الاجتماعية وهى القضية المطروحة فى السينما والشعر والقصة والمسرح والفكر السياسى والأحزاب السياسية فى ذلك الوقت مثل الطليعة الوفدية، بالتوحيد. إذ يقوم التوحيد على مبادئ ثلاثة: الحرية الإنسانية، والمساواة الإنسانية، والتكافل الاجتماعى. وأعطى شواهد تاريخية عديدة من أقوال الصحابة والأئمة على الاشتراكية الإسلامية وفى نفس الوقت الذى اصدر فيه مصطفى السباعى فى سوريا "اشتراكية الإسلام" عام ١٩٤٧. ثم كتب "معركة الإسلام والرأسمالية" يبين فيها التناقض بينهما وكأنه بيان شيوعى يؤصل الماركسية. ثم كتب "السلام العالمى والإسلام" يؤسس فيها قضية السلام ابتداء من الضمير رضا الإنسان عن نفسه إلى السلام فى الأسرة والتوافق بين أعضائها إلى السلام فى المجتمع الذى يقوم على تذويب الفوارق بين الطبقات. وهنا رشحته الثورة المصرية لأن يكون رئيساً لهيئة التحرير، أول تنظيم سياسى لها ومشرفاً على مجلتها ونشراتها.

والثالثة المرحلة الفلسفية وفيها غرق سيد قطب فى الجانب النظرى فى الإسلام، تأسيس الايديولوجية الإسلامية فى "خصائص التصور الاسلامى ومقوماته" والتى تقوم على الوحدانية والمثالية والتعادلية والاتزان والحركية والوجدانية. كان أقرب إلى إقبال منه إلى مفكرى الإخوان. ولما كان ذلك رداً على كتاب الكس كاريل "الإنسان ذلك المجهول" حدث تقابل بين الأنا والآخر، بين الإسلام والغرب. وهو ما اشتد بعد زيارته لأمريكا فى بعثة تعليمية وحدوث صدمة حضارية كشفت التناقض بين مجتمعين. ثم كتب "المستقبل لهذا الدين" مبيناً المستقبل للأنا ونهاية الآخر. وأخيراً جمع عدة مقالات له فى الدين والسياسة

والأدب والاجتماع والتاريخ فى "دراسات إسلامية". وهى آخر ما وصل إليه سيد قطب من تنظير، وأعلى ما وصلت إليه الايديولوجية الإسلامية من أحكام فى أوائل الثورة.

والمرحلة الرابعة هى المرحلة السياسية. فعندما اندلعت الثورة فى ١٩٥٢كان سيد قطب قد دخل الإخوان منذ سنتين فحسب. ولما كان معروفاً بكتاباته الاشتراكية فقد عهد إليه بإلقاء عدة أحاديث إذاعية عن الوطنية والاشتراكية والثورة. ولما حلت الثورة الأحزاب أبقت على الإخوان نظراً لارتباط الثورة بها. وكتب سيد قطب برنامج الإخوان بناء على طلب الثورة الأحزاب بكتابة برامجها السياسية. وبعد أن وقع الخلاف بين الضباط الأحرار، بين عبد الناصر ونجيب فيما عرف بأزمة مارس ١٩٥٤، انضم الإخوان إلى نجيب لما كان يمثله من أبوة ووطنية ونزعة إسلامية يجمع بها بين شطرى وادى النيل أم سودانية وأب مصرى. ولما خسر نجيب المعركة بدأ الصراع بين الإخوان والثورة. وبلغ الذروة فى يوليو ١٩٥٤ عندما أطلق أحد أعضاء جماعة الإخوان النار على عبد الناصر فى ميدان المنشية بالإسكندرية لاغتياله. فكانت الفرصة لعبد الناصر ورفاقه لحل الإخوان والقبض على مكتب إرشادها، واستشهاد عبد القادر عودة وغيره من أعضاء التنظيم، ودخول سيد قطب السجن. ومن أهوال التعذيب وفى ظلمات السجون، ومن آلام الجسد، وصرخات حرق الجسد كتب سيد قطب "معالم فى الطريق"، البعض من فصوله مننتزع من "فى ظلال القرآن"، والبعض الآخر يعبر عن أنات السجين البرىء. وفيه يشتد التقابل بين الإسلام والجاهلية، الإيمان والكفر، الله والطاغوت، وأنه لا يمكن المصالحة بينهما، بل يقضى أحد الطرفين على الآخر. ولما كان لا غالب إلا لله فسيتم انتصار الإسلام على الجاهلية، والله على الطاغوت، والإيمان على الكفر عن طريق تكوين جيل قرآنى فريد، خاصة الخاصة، تملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. ولما صدر الكتاب فى الستينات لم يدرك أحد أهميته. ولما قرأه عبد الناصر عائداً من موسكو بعد زيارة للاستشفاء أدرك بحسه التنظيمى الحزبى أن وراء هذا الكتاب لابد وأن يكون هناك تنظيماً سرياً. وطلب من وزير داخليته، شعرواى جمعه،

اكتشاف هذا التنظيم. وقبض على سيد قطب ثانية بعد أن كان قد أفرج عنه قبل ذلك بسنتين، واتهم بتدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم. وبعد محاكمة صورية تمت إدانته. وحكم عليه بالإعدام شنقاً فى صيف ١٩٦٥ بعد أن تشفع له كثير من حكام العرب والمسلمين. كانت الثورة تدافع عن نفسها بعد قوانين يوليو الاشتراكية كرد فعل على الانفصال المصرى السورى. كانت تناصر الثورة اليمنية، ولم يكن بإمكانها السماح بأى تحد لها فى الداخل والخارج. ومع ذلك وقعت هزيمة يونيو ١٩٦٧ بعد شنق سيد قطب بسنتين، وكانت بداية النهاية للجمهورية الأولى التى انتهت بوفاة عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٧٠.

ويعبر "فى ظلال القرآن" آخر ما صدر فى علوم التفسير فى الفكر الاسلامى الحديث من تفسيرات تالية لتفسير "المنار" لمحمد عبده ورشيد رضا. تتضح فيه هذه المراحل الأربع متداخلة. تجمع بين التفسير الأدبى والاجتماعى والفلسفى والسياسى. وقد طغت المرحلة السياسية الأخيرة على باقى المراحل الأدبية والاجتماعية والفلسفية. وقرأت الجماعات الإسلامية المعاصرة "معالم فى الطريق". ونست "التصوير الفنى فى القرآن" و"العدالة الاجتماعية فى الإسلام"، و"معركة الإسلام والرأسمالية". وتم اختزال سيد قطب الشاعر الأديب الناقد الاشتراكى الفيلسوف فى سيد قطب الخارجى الذى يكفر المجتمع والمصدر الرئيسى لجماعات التكفير والهجرة[1]. وما زال التحدى قائماً الآن: من الذى يخلف سيد قطب كمفكر إسلامى وحدوى تقدمى اشتراكى ويوحد من جديد بين الإسلام والثورة؟

٣ـ الجذور المعاصرة للإسلام السياسى.

وقد كون الضباط الأحرار داخل الجيش فى نفس الفترة تنظيمهم السرى للانقلاب على السلطة وإنهاء حكم الأحزاب الفاسدة، وتلاعب القصر بالحكومات الوطنية، وتدخل الإنجليز فى الحياة السياسية ووجود قواتهم على ضفاف قناة

---

(١) انظر دراستنا المطولة "أثر الأمام الشهيد سيد قطب على الحركات الدينية المعاصرة"، الدين والثورة فى مصر جـ٥ الحركات الإسلامية المعاصرة، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩ ص ١٦٧-٣٠٠.

السويس وفى التل الكبير، ومن أجل التحقيق فى موضوع الأسلحة الفاسدة، وهزيمة الجيش فى فلسطين بل والتحقيق فى مقتل الشهيد حسن البنا. كان ذلك كله ضمن المبادئ الستة الأولى للثورة: القضاء على الاستعمار والملكية الإقطاع ورأس المال، وتكوين جيش قوى، وإقامة حياة ديموقراطية سليمة.

ولما اندلعت الثورة في يوليو ١٩٥٢ كان نصف أعضاء مجلس قيادة الثورة الستة من الإخوان المسلمين ومنهم عبد المنعم عبد الرؤوف، رشاد مهنا. وكان الضابط أبو المكارم عبد الحى ضابط الاتصال بين تنظيم الضباط الأحرار داخل الجيش والإخوان المسلمين. كان عبد الناصر والسادات على صلة بحسن البنا والإخوان، لهما نفس الأهداف، تغيير النظام السياسى فى مصر الذى يسيطر عليه الإنجليز والقصر والإقطاع إلى نظام وطنى لتحرير مصر من الاحتلال والقصر والإقطاع.

وبعد حل الإخوان فى ١٩٥٤ وانتقالهم إما إلى السجون أو إلى الخليج أو إلى الحياة السرية بدأت فترة جديدة من الإسلام السياسى السرى تحت الأرض ابتداء من "معالم فى الطريق" فوق الأرض. عاش الإخوان يفكرون فى أحزانهم وينتظرون لحظة الانتقام من "الناصرية". يعتبرون كل إنجازاتها خسائراً وكل هزائمها مكاسباً، باستثناء تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ وخروج الإخوان من السجن وتسليحهم واشتراكهم فى المقاومة عن المدينة. وبعد تحريرها عادوا إلى السجون بعد أدائهم الواجب الوطنى. الوحدة مع سوريا ١٩٥٨-١٩٦١ تمت على أساس قومى غير إسلامى. لذلك انفصمت عروتها فى ١٩٦١. وقوانين يوليو الاشتراكية ١٩٦٢-١٩٦٣ تمت باسم الاشتراكية العلمانية أو الماركسية التى كانت حليفاً لعبد الناصر. لذلك ألغيت بعد قوانين الاستثمار فى ١٩٧٥. وحرب اليمن بعد اندلاع الثورة أدت إلى سفك دماء المسلمين بأيديهم، مصريين ويمنيين. وكانت أحد أسباب هزيمة ١٩٦٧. ولم يشفع الحلف الإسلامى عام ١٩٦٥ بين الرياض وطهران وكراتشى فى حصار الناصرية من الخارج. ونجح العدوان

الاسرائيلى على مصر فى ١٩٦٧ واضعاً حداً للتجربة الناصرية التى انتهت بوفاته فى سبتمبر ١٩٧٠ وانتهت بها تجربة الجمهورية الأولى.

ولما بدأت الجمهورية الثانية فى ١٩٧١ بدأت بتصفية التجربة الناصرية فى انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١ الذى سمى "ثورة التصحيح". وأخرج الإخوان، أعداء عبد الناصر من السجون لاستعمالهم ضده، جبهة واحدة أمام العدو المشترك، الملحد الاشتراكى، دفاعاً عن الإيمان والرأسمالية. وقامت حرب أكتوبر ١٩٧٣ تحت ضغوط المظاهرات الطلابية فى ١٩٧٢ وبعد حرب الاستنزاف فى ١٩٦٧-١٩٦٩ وانتظار الناس ساعة الحسم. وعبرت القوات المصرية قناة السويس والحاجز الترابى إلى سيناء تحت شعار "الله أكبر". وبعد نجاحها تم تفسيرها دينياً لمزيد من الانتقام من عبد الناصر الذى وضع خطة التحرير "بدر"، وأعد الجيش استعداداً لمعركة التحرير. بسبب الإلحاد فى الفترة الناصرية وقعت الهزيمة، وبسبب الإيمان فى الفترة الساداتية حدث الانتصار. ظهرت العذراء فى الزيتون بعد الهزيمة لمشاركة المصريين الأحزان، وعبر الملائكة قناة السويس فى انتصار ١٩٧٣، يقطعون رؤوس اليهود كما فعلوا فى غزوة بدر. وبدأت شعارات "العلم والإيمان" فى الظهور عنواناً للجمهورية الثانية، "من لا إيمان له لا أمان له" لتخليص النظام من فلول الشيوعيين فى العهد الناصرى. وصدرت قوانين الاستثمار والانفتاح الاقتصادى فى ١٩٧٥. وبدأ الإخوان يتعاونون مع النظام الجديد ضد النظام القديم. وتمت تصفية الناصريين من الجامعة فى ١٩٧٦-١٩٧٧ بتسليح الإسلاميين وبأيديهم حتى بدأت الحركة الإسلامية تفرض نفسها على الحرم الجامعى، وتتصدر انتخابات اتحاد الطلاب. فاستعمل الدين من الطرفين، من النظام السياسى كوسيلة لإضفاء الشرعية السياسية عليه بعد انقلاب ١٥ مايو، ومن الحركة الإسلامية المستمرة فى نشاطها الاسلامى الاعلامى لكسب مزيد من الشعبية انتظاراً للحظة الحسم الديمقراطى فى انتخابات قادمة بعد السماح بالتعددية الحزبية أو بانقلاب شعبى عسكرى إذا حان الوقت، وضعف النظام السياسى، وقوت الحركة الإسلامية.

وحدثت فى السجون مناقشات بين أعضاء الجماعة حول مسار حركة الإخوان، مكاسبها ومخاسرها. وبدأ جناح يتكون فيها أكثر جذرية من جيل الرواد، يود الانتقام والثأر مما حدث للجماعة، ويريد استعمال العنف اعتماداً على التنظيمات السرية المسلحة والتصفيات الجسدية. فلا يفل الحديد إلا الحديد. وبدأت الجماعات الإسلامية المعاصرة فى ممارسة رؤيتها الجديدة بحادث الاستيلاء على الفنية العسكرية فى ١٩٧٤، والاستيلاء على محافظة أسيوط بعدها بسنوات، ومقتل الشيخ الذهبى فى ١٩٧٧. ثم تشرذمت الحركة الإسلامية فى عدة جماعات صغيرة مثل "التكفير والهجرة" بقيادة شكرى مصطفى. وهو اسم أجهزة الأمن لجماعة المؤمنين، وجماعة "قف وتبين"، والقطبيين، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتى تندرج جميعاً تحت اسم الجماعات الإسلامية، سواء كان يجمعها جامع فى الداخل والخارج تحت اسم "الجماعة الإسلامية" أو تعمل كل منها على حدة وبوسائلها الخاصة السلمية أو بالعنف.

وبعد الهبة الشعبية فى يناير ١٩٧٧ وإدراك أن الناصرية وصور عبد الناصر مازالت تتحكم فى حركة الجماهير من الإسكندرية إلى أسوان بدأ السادات يبحث عن أحلاف جدد خارج مصر، إسرائيل والولايات المتحدة. فزار القدس فى نوفمبر من نفس العام ١٩٧٧. وعقد معاهدة كامب دافيد فى ١٩٧٨، واتفاقية السلام فى ١٩٧٩. ولمزيد من الأحكام والسيطرة وبعد أن قطعت جبهة الرفض العلاقات مع مصر أصدر عدة قوانين مقيدة للحريات بالإضافة إلى قانون الطوارئ: وقانون الاشتباه، وقانون العيب. ورفع شعارات "مصر أولاً"، "العلم والإيمان". وتمثل دور "كبير العائلة"، المدافع عن "قيم القرية". لبس الجلبات، ومسك العصا، وجلس على "المصطبة"، وأعطى له لقب "الرئيس المؤمن" و"خامس الخلفاء الراشدين". ويذكر اسمه على أنه "محمد أنور السادات" تيمناً باسم الرسول. ويبدأ خطبه "باسم الله" وليس كما كان يفعل عبد الناصر "أيها الأخوة المواطنون". وينهيها بآية تدل على التواضع والمغفرة كى يخفى بها التسلط والقهر ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا

ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، وانصرنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾. واستعملت السلطة سلاح الدين لتكفير خصومها السياسيين، الناصريين والشيوعيين واتهامهم بالإلحاد والمادية، "من لا إيمان له لا أمان له". فتكفير الخصوم بدأ من النظام السياسى ومن الحركة الإسلامية على السواء وبنفس المنطق[1].

وبعد أن رأت الحركة الإسلامية أنها لا تستطيع أن تسير مع السادات أكثر من ذلك بعد صلحه مع إسرائيل وارتمائه فى أحضان الغرب، والولايات المتحدة خاصة، والقطيعة مع العرب، وسن القوانين المقيدة للحريات، وانتهاء فترة المنفعة المتبادلة بينهما، واستعمال السادات لهم لتصفية الناصريين من الجامعة والحياة العامة، واستعمالهم السادات لأخذ مراكز قوة فى الإعلام والحياة العامة قررت الوقوف أمامه مع المعارضة الناصرية والماركسية والليبرالية. وتوحدت قوى المعارضة لصياغة سياسات بديلة فى رفض الصلح مع إسرائيل، ومقاومة الولايات المتحدة، وتوحيد العرب، ورفض القوانين المقيدة للحريات. وأراد السادات التخلص من ائتلاف قوى المعارضة لإثبات أن شعبه وراءه بعد تشكك بيجين فى أن الشعب المصرى يؤيد اتفاقات السلام، وليبين أن هؤلاء المعارضين أقلية من الأفندية الأراذل لا تمثل أغلبية الناس المؤيدة للسلام، وأنه قادر على أن يقبض عليهم فى أربع وعشرين ساعة، ويضعهم فى السجون. وقام بالفعل بالقبض على كل ممثلى حركات المعارضة السياسية له، إسلاميين وناصريين وماركسيين وليبراليين. وفصل أساتذة جامعيين وصحفيين. وعزل البابا شنودة، رئيس الكنيسة القبطية فيما يسمى بمذبحة سبتمبر ١٩٨١. واغتيل بعدها بشهر فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ على يد ضابط وجنود فى الجيش أعضاء فى جماعة الجهاد الإسلامية[2].

---

(١) انظر دراستينا: "التطور الدينى فى مصر الحديثة"، "أثر العامل الدينى على توزيع الدخل القومى فى مصر"، "الدين والثورة فى مصر" جـ٤ الدين والتنمية القومية ص٣-٢٨٨.

(٢) انظر دراستنا: الأصولية الإسلامية، الدين والثورة فى مصر ١٩٥٢-١٩٨١ جـ٦ الأصولية الإسلامية، ص٣-٢٠٥.

وظلت الحركات الإسلامية من ١٩٨١ حتى الآن تمارس نفس الخط، النزاع المسلح مع النظام السياسى القائم فى مصر. فقد استمرت الساداتية دون السادات. واستمرت العلاقة مع إسرائيل بالرغم من رفض التطبيع من مجموع القوى السياسية المصرية والأردنية والاتحادات والنقابات والمنظمات الأهلية. وكانت أكبر حادثة مذبحة الأقصر عام ١٩٩٩ والتى قضت على الموسم السياحى مع حوادث أخرى ضد السياح فى الهرم أو قنابل فى ميدان التحرير أو تراشق بالرصاص مع أفراد الشرطة فى الصعيد لبيان أن الجماعات الإسلامية هى التى تتحكم فى الحياة العامة وقادرة على التأثير فى الاقتصاد، وإحداث القلاقل السياسية، وتستولى على أجهزة الإعلام من الباب الخلفى بتصدى أخبارها الصفحات الأولى فى الجرائد اليومية. دخل التوتر بين الجماعات الإسلامية والنظام السياسى بسبب إعادة نظر الجماعات فى ضرورة استعمال العنف وسفك دم الأبرياء بالاعتداء على السياح بعد حادث الأقصر وظهور جناح يحرم ذلك. فلا تؤخذ جريمة المذنب بالبرىء. ومع ذلك يظل التوتر قائماً، لاعتبار الجماعات قوة المعارضة الرئيسية فى البلاد، تتوجه لها أجهزة الأمن بالمرصاد.

٤ـ شعارات الإسلام السياسى.

إن تحليل شعارات الحركات الإسلامية المعاصرة كعلامات على أيديولوجياتها السياسية ومزاجها النفسى ينتهى إلى أنها شعارات سلبية أكثر منها إيجابية، تدل على قدر كبير من الغضب والرفض، والهروب إلى البديل، والبحث عن المنقذ. وهى أربعة شعارات: "الحاكمية لله"، "الإسلام هو البديل"، "الإسلام هو الحل"، "تطبيق الشريعة الإسلامية".

الأولى "الحاكمية لله" تعنى رفض حاكمية البشر التى اضطهدت الحركة الإسلامية سواء فى الفترة الليبرالية التى استشهد فيها حسن البنا أو الفترة القومية التى استشهد فيها عبد القادر عودة وسيد قطب وغيرهم من أعضاء جماعة الجهاد مثل محمد عبد السلام فرج، وخالد الاسلامبولى وغيرهم. فالله حاكم لا يظلم، وهو

أدرى بمصالح العباد. حكمه تطبيق إرادته، أوامره ونوهيه التى تجلت فى الشريعة. وهو موقف صريح بنص القرآن فى آيات ثلاث ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾، وفى آية أخرى ﴿هم الفاسقون﴾، وفى أية ثالثة ﴿هم الضالون﴾. الحاكمية الله ضد الحاكمية لأهواء البشر ومصالح الطبقات. الحاكمية لله لا تخطئ فى حين أن حاكمية البشر تخطئ وتصيب. فالشعار يتضمن رفضاً لكل نظم الحكم البشرية على كافة أنواعها، ليبرالية، وقومية، واشتراكية، وماركسية، وديمقراطية، وجمهورية، وملكية، وإماراتية، وسلطانية، ودولتية، وجماهيرية عظمى أو صغرى. فالشعار يعنى الرفض والسلب. وإذا سئلت الجماعة ماذا تعنى "الحاكمية لله" إيجابا لصعبت الإجابة لأن الله لا يحكم بنفسه بل عن طريق شريعته. والشريعة يفهمها البشر ويستنبطونها من أصولها، ويطبقونها فى الزمان والمكان طبقاً لمقتضيات التعزير. وفى حاجة إلى فروع تحول مبدأ الشورى إلى نظام فى الحكم، ومبدأ العدالة الاجتماعية إلى نظرية فى الاقتصاد، ومبدأ "حق الاختلاف" إلى نظرية فى التعددية السياسية. وعندما تصل الحركة الإسلامية إلى الحكم مثل السودان والطالبان وإيران فإنها تتحول إلى نظام تسلطى لا يفترق عن النظم السياسية العلمانية. فالتسلط بنية اجتماعية وموروث ثقافى غالب تعتمد عليه النظم السياسية وحركات المعارضة على السواء بما فيها الحركة الإسلامية.

والثانى "الإسلام هو البديل" يتضمن أيضاً رفضاً هائلاً لكل البدائل المتاحة والتى تم تجربتها فى حياة المسلمين فى العصر الحاضر. الليبرالية أولاً ثم الاشتراكية والقومية والعربية ثانياً. ربما الليبرالية قدمت بعض الإنجازات على مستوى حرية الفكر والتعبير والصحافة والحياة الحزبية والبرلمانية. وأثنائها اشتدت الحركة الوطنية، وقامت ثورة ١٩١٩ باسمها. ومع ذلك ساد الإقطاع والرأسمالية والتوجه نحو الغرب. وكانت الأحزاب فاسدة، يضطهد بعضها بعضاً، والانتخابات مزورة، والبرلمان بأيدى الملك يحله متى يشاء، والدستور منحة منه، والإنجليز مازالوا فى البلاد، وفى عصرها وقعت معاهدة ١٩٣٦ ونكبة ١٩٤٨.

ثم تلتها الاشتراكية أو القومية العربية وحققت بعض الإنجازات مثل تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦، وتمصير الشركات الأجنبية فى ١٩٥٧، والوحدة مع سوريا فى ١٩٥٨-١٩٦١، وقوانين يوليو الاشتراكية فى ١٩٦٢-١٩٦٣، وتدعيم ثورة اليمن فى ١٩٦٤، وثورة العراق فى ١٩٥٨، وثورة ليبيا فى ١٩٦٩، ورفض الصلح والاعتراف والتفاوض مع الكيان الصهيونى فى ١٩٦٧، وحرب الاستنزاف فى ١٩٦٨-١٩٦٩، ومجانية التعليم، والتصنيع، وتوحيد العرب، وإكمال حركات الاستقلال، والقطاع العام، وتأسيس حركة عدم الانحياز، "لا شرقية ولا غربية" منذ باندونج فى ١٩٥٥ حتى بلجراد فى ١٩٦٤ والجزائر والقاهرة ونيودلهى. ولكنها انتهت بالهزيمة المروعة فى ١٩٦٧ إثر سيادة الطبقة الجديدة، الضباط والتكنوقراط، وكبار موظفى الدولة ورجالات الحزب، والفساد، والقهر، ونهب القطاع العام. واحتلت سيناء وباقى فلسطين والجولان. وفى عصرها تم إنشاء إسرائيل الكبرى، ومد الهجرات السوفيتية إلى إسرائيل. وتم الاعتراف بإسرائيل، والتحالف مع أمريكا. واستمر الأمر كذلك فى الجمهوريتين الثانية والثالثة، والتحول من القطاع العام إلى الخاص، ومن مجانية التعليم إلى خصخصته، ومن التخطيط الوطنى إلى الاستثمار الأجنبى، ومن السيادة الوطنية إلى الدخول فى عصر العولمة واقتصاديات السوق. وجرمت الحركة الإسلامية واستشهد زعماؤها. واستبعد الإسلاميون ودخلوا السجون ثم استعملوا ضد الخصوم ثم راحوا ضحية ألاعيب السياسية. ومازال إرث هذا العصر قائماً فى القلوب حتى الآن، يحرك الضغائن، ويثير الأحقاد، ويتربص للانتقام.

والثالث "الإسلام هو الحل" وهو مثل الشعار السابق إذا اشتدت الأزمات، وتوالت النكبات وعجزت النظم السياسية عن حلها ظهر "الإسلام هو الحل" عن طريق البحث عن الغائب المجهول، والمفتاح السحرى لكل الأبواب، وعجز الدولة عن إيجاد الحلول للأزمات التى تفاقمت يوماً بعد يوم. فلا الليبرالية أفلحت فى تحرير فلسطين بل ضاع نصفها فى العهد الليبرالى فى ١٩٤٨ والنصف الآخر فى العهد الاشتراكى فى ١٩٦٧. كانت الحركة الإسلامية مضطهدة فى العصر الليبرالى

واستشهد حسن البنا فيه، ومضطهدة أيضاً فى العصر الاشتراكى واستشهد عبد القادر عودة وسيد قطب ومحمد عبد السلام فرج فيه. وتجزأت الأمة فى العصر الليبرالى بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا واحتلال القوى الغربية لها، وتقسيم غنيمة الرجل المريض. وتشرذمت أثناء الجمهورية الثالثة إلى عرب وبربر وأكراد وسنة وشيعة ومارونية وقبطية. ووقعت الحروب الأهلية فى السودان والجزائر ولبنان. وأغلقت الحدود بين المغرب والجزائر. وصدامات بين مصر والسودان، وخلافات بين اليمن والسعودية، وبين قطر والبحرين حتى وقع الغزو العراقى للكويت. وانضم فريق من العرب إلى قوى التحالف الغربى، وفريق آخر مناهض له. واعتدت إسرائيل على لبنان وتونس والعراق وسوريا ومصر، ومازالت يدها تريد أن تصل إلى إيران وباكستان. لم تستطع الأيديولوجيات الليبرالية أو الاشتراكية القومية أن تحل قضايا التنمية لا على الطريق الرأسمالى ولا على الطريق الاشتراكى. ولم تستطع أن تحل قضية الهوية، بعد أن أصبحت غربية فى العصر الليبرالى وفى عصر الانفتاح والعولمة فى الجمهورية الثالثة. فإذا كانت التجربة تثبت فشل الأيديولوجيات العلمانية التحديث لم يبق إلا الإسلام الذى لم يجرب حتى الآن مع أن "الإسلام هو الحل" سلباً لفشل تجارب التحديث السابقة. مع أن الحكم الاسلامى قد تمت تجربته فى السعودية وفى أفغانستان وفى السودان وكانت المخاسر كثيرة على صعيد الحريات. ومازال التجربة الثورية الإسلامية فى إيران على شفا جرف هاو نظراً للاستقطاب بين الإصلاحيين والمحافظين، ومحاولة كل منهما السيطرة على قطاعات الدولة كالجيش والمجلس النيابى والقضاء والإعلام. ومازال حكم "الطالبان" فى أفغانستان بعيداً عن أن يكون نموذجاً للحكم الاسلامى. وقد انتهى الانقلاب "الاسلامى" فى السودان بتعاون البشير والترابى إلى النزاع بين الرأسين فى مواجهة وصدام يضاف إلى النزاع المسلح الدائر بين الشمال والجنوب.

والرابع "تطبيق الشريعة الإسلامية" ويعنى ضيق الناس بمجموع القوانين المدنية التى تتحكم فيهم، السياسية والاجتماعية والاقتصادية. لا يعرفون سبب سنها أو تغييرها ولا عن أى مصالح تعبر. كلها سواء فى الظلم والضيق والإضرار

بمصالح الناس. فينادون بتطبيق الشريعة الإسلامية هرباً من القوانين المدنية وفراراً منها. فإذا كان البشر يظلمون فإن الله لا يظلم. وإذا كانت الشرائع المدنية تعبر عن إرادة الحكام وأهوائهم فإن الشريعة الإلهية عادلة لا تظلم تعبر عن الإرادة الإلهية التى لا تنحاز لفريق ضد فريق. النظم السياسية تتبع إرادة الحكام واختياراتهم، ليبرالية أو اشتراكية. وقد يغيرها الحاكم نفسه طبقاً لمزاجه وتقلباته ومصالحه وتحالفاته. والأنظمة الاقتصادية رأسمالية أو شيوعية، تقوم على الملكية الخاصة أو الملكية العامة، على الحرية الاقتصادية أو على التوجيه الاقتصادى. كل ذلك يقرره الحكام دون ما رعاية لمصالح الناس. وسياسات الأجور تتغير كل يوم ولا يدرى الناس ما معاييرها. وكلها تؤدى إلى الضنك والفقر ولا تعادل مستوى الأسعار، ولا تقوم على أن العمل وحده مصدر القيمة، وتعطى أصحاب الياقات البيضاء أكثر مما تعطى أصحاب الياقات الزرقاء. والنظم التعليمية وقوانينها تتغير كل بضعة سنوات. وكلها لا ترعى العلم، ولا تؤدى إلى البحث بل إلى طاعة الحكام وتقليد القدماء. يتعذب المواطن فى دور الحكومة لأخذ تصريح بناء أو رخصة قيادة أو بطاقة شخصية أو حقه فى محكمة أو يشتكى فى قسم شرطة. ويتوق إلى نظام لا يظلم وإلى شريعة عادلة. ولما كان الإسلام مازال حياً فى القلب، والشريعة مرضى عنها فى العبادات فإنه وجدانياً ونفسياً يتوق إلى من يرفع شعار "تطبيق الشريعة الإسلامية". مع أنه أيضاً لا يطبقها إلا رجال يسيئون فهمها ويطبقونها حرفياً كما هو الحال فى كثير من النظم الإسلامية المحافظة فى السودان وإيران وأفغانستان وشمال نيجيريا وتشاد حيث توطن الأغلبية الإسلامية، وتضحى بوحدة الوطن من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية، وكذلك الحال فى بعض الأقاليم الاندونيسية[1].

إن تحليل شعارات بعض الإخوان التقليدية الأولى يجدها البعض أيضاً إنما تعبر عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مثل "الله زعيمنا، والرسول

(١) انظر دراستنا: الحاكمية تتحدى، هموم الفكر والوطن، جـ١ التراث والعصر والحداثة، مدبولى، القاهرة ١٩٩٨ ص ٤٢٩-٤٥٠.

قدوتنا، والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا". وهو الهتاف الرئيسى للجماعة. "الله زعيمنا" تعنى الضيق بزعامة البشر، فالكل متسلط قاهر، ظالم لا يبغى إلا سلطانه، ملكاً كان أم ضابطاً، من قريش أو من الجيش، مفوضاً من الله أو منتخباً من الناس، فكلاهما تفويض زور، وانتخاب مزور. فزعامة الله أفضل من زعامة البشر. و"الرسول قدوتنا" تعنى أن القدوة البشرية قد عزت، وأن البشر جميعاً ناقصون، وأن الحكام ليسوا نماذج يقتدى بهم. فالرسول هو القدوة فى حياته وسنته، فى أهله ومع أصحابه، فى أقواله وأفعاله. و"القرآن دستورنا" تعنى الضيق بدساتير البشر التى تعبر عن إرادة الحكام. إذ تتغير الدساتير. وفى بنودها ما يعطى الحكام سلطة مطلقة وما يقيد حريات الناس. لذلك تقوم الهبات الشعبية لإلغاء الدستور أو على الأقل تعديل بعض بنوده. والقرآن دستور لا يظلم ولا يحابى ولا يتحيز لأحد. هو دستور إلهى يتجاوز الزمان والمكان والعصر. و"الجهاد سبيلنا" ضد الخضوع ومصالحة الأعداء والرضا بالذل وعقد معاهدات تضر بمصالح البلاد. فالجهاد أفضل طريق لنيل الحقوق. و"الشهادة فى سبيل الله أسمى أمانينا" تعنى حب الموت الكريم على الحياة الذليلة، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون. وشهداء المقاومة فى جنوب لبنان وفى فلسطين قادرون على الصمود أمام أعتى الجيوش وأحدث الأسلحة بالأجساد البشرية والعربات المفخخة فى العدو.

وإن تحليل هتافات الحركة السياسية يؤدى إلى نفس النتيجة وهى الضيق بالواقع والرفض لنظمه والتوق إلى واقع جديد. مثلاً "الله أكبر ولله الحمد"، تعنى أن الله أكبر من كل كبير، الله أكبر على كل من طغى وتجبر، الله أكبر قاصم الجبارين وهو شعار الثورة الإسلامية فى إيران، ضد تأليه البشر، وتعظيم الحكام، وتقديس الطغاة. وفى نفس الوقت تعنى التواضع والشكر والحمد لله على نصرة الحق على الباطل، العدل على الظلم. ومثل آخر "خيبر خيبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود" إنما يدل على ضيق بعجز الأمة عن مواجهة الكيان الصهيونى، استيطانه وتوسعه، وقمعه لانتفاضة الأقصى، وقتله أطفال الحجارة، وأن التاريخ

متصل الحلقات، وكما انتصر الرسول على اليهود فى خيبر قديماً ينتصر المسلمون عليهم فى فلسطين حديثاً بنفس السلاح وهو الإسلام، "بالروح والدم، نفديك يا إسلام" لها نفس المعنى "بالروح والدم نفديك يا فلسطين"، وبالشهادة "بالروح، بالدم نفديك يا شهيد"، "لا اله إلا الله، الشهيد حبيب الله".

٥ـ جدل الشرعية واللاشرعية.

إن الذى يحدد علاقة الحركات الإسلامية بالنظم الإسلامية هى قضية الشرعية واللاشرعية لكليهما معاً وليس لواحدة دون الأخرى. عندما تكون النظم السياسية شرعية، منتخبة من الناس دون تزوير تصعد الحركة الإسلامية وتأخذ حق تمثيلها فى المجالس النيابية فى النظم البرلمانية. وتصبح ممارسات العنف هى الاستثناء من الطرفين نظراً لحداثة المجتمعات الإسلامية فى التجربة الديمقراطية للحركات الإسلامية. وإذا كانت الأنظمة السياسية تسلطية تقوم على القهر والغلبة وأجهزة الأمن والشرطة انعكس ذلك سلباً على الحركات الإسلامية ومارست العنف، فلا يقابل العنف العلنى إلا العنف السرى. ولا يجابه العنف القسرى إلا العنف التحررى. ولا يقوى على العنف القهرى إلا العنف الثورى، وكما هو الحال فى علاقة المنظمات الثورية بأنظمة الحكم الديكتاتورية فى أمريكا اللاتينية[1]. فالنظام السياسى هو البادئ بالعنف ليس ضد الحركات الإسلامية وحدها بل ضد جميع حركات المعارضة إسلامية وقومية وليبرالية. العنف كمقدمة يولد العنف كنتيجة، العنف كفعل يولد العنف كرد فعل أو انفعال.

وهناك العنف المرئى، استعمال أجهزة الأمن ضد الحركات الإسلامية، والعنف اللامرئى مثل تشويه صورتها فى أجهزة الإعلام، واستبعادها من مراكز اتخاذ القرار، والتدخل فى انتخابات الاتحادات والنقابات والمنظمات غير الحكومية والأحزاب السياسية لإسقاط مرشحى الحركات الإسلامية، وعدم السماح لها بإصدار صحفها

---

(١) العنف القسرى Oppressive violence ، الحكم التحررى Liberating violence ، العنف الثورى Revolutionary violence.

اليومية أو مجلاتها الأسبوعية أو أنشطتها الدورية، ووضع أعضائها تحت المراقبة، ومنعهم من السفر، والتشكك فى رموزها وطريقة حياتها وأساليب ممارستها، الذقن والجلباب والسبحة والحجاب والحرفية والجماعات المغلقة ونظم المصاهرة والقرابة، والهجوم عليها من دعاة "التنوير الحكومى"، واتهامها بالظلامية والتخلف والرجعية والأصولية والشكلية. هو العنف المكبوت الذى قد ينفجر فى أية لحظة عرضية تأتى كحامل اجتماعى له.

وهناك أربعة أنماط للعلاقة بين النظم السياسية والحركات الإسلامية. الأول النمط البرلمانى الذى يسمح بشرعية الحركة الإسلامية ويعتبرها جزءاً من النظام السياسى وإحدى فصائل المعارضة. فالنظام السياسى الديموقراطى يولد حركة إسلامية ديموقراطية ولا تمارس العنف، وتقبل بنتائج الاقتراع. بل أحياناً تتجاوز الحركة الإسلامية دورها التمثيلى إلى القيام بالمهام الوطنية المناطة بالدولة ذاتها فى الدفاع عن وحدة الأراضى الوطنية واستقلال الوطن. وأكبر مثل على ذلك التجربة اللبنانية ودور الحركات الإسلامية فى النظام السياسى اللبنانى، وقيام حزب الله أو منظمة أمل بالعبء الرئيسى فى تحرير الجنوب من الاحتلال الصهيونى وبموافقة الدولة وفى إطار من الشرعية الدستورية بل وتقدير الدولة والشعب لدورها.

والثانية النظم السياسية الملكية أو الإماراتية أو العسكرية التى تسمح بشرعية الحركات الإسلامية ليس حباً فى الديموقراطية أو إيمانياً بشرعية الحركة الإسلامية، تنظيماتها وبرامجها وممارساتها، ولكن طبقاً لذكاء عملى من أجل استتاب النظام السياسى والاستقرار الاجتماعي وتحقيق أمن الدولة. مثال ذلك التجربة الأردنية واليمنية والكويتية والمغربية والبحرينية أخيراً. بدأ الأردن هذه التجربة بالسماح للاخوان المسلمين بجميع فصائلهم بالتقدم للانتخابات البرلمانية وبقبول قواعد اللعبة الديموقراطية، المكسب والخسارة، الأغلبية والأقلية. فإذا حققت الحركة الإسلامية بعض ما نادت به فى شعاراتها يزيد تمثيلها فى الدورة الانتخابية الثانية. فإذا لم تحقق شيئاً ولم يشعر الناس بالتطبيقات العملية لشعاراتها فإن تمثيلها يقل

فى الدورة الانتخابية الثانية. والاحتمال الثانى أقرب لأن تحقيق ما تنادى به الأحزاب فى نظام أوتوقراطى، ملكى أو عسكرى، صعب للغاية لأن القرارات السياسية الكبرى تظل حكراً على النظام السياسى.

وتشبه التجربة الكويتية التجربة الأردنية نظراً لتاريخ ديموقراطى طويل للنظام السياسى الدولتى ولقوة المعارضة فى الشارع والصحافة والبرلمان بكافة فصائلها القومية والليبرالية والإسلامية. وبالرغم من تشدد بعض أجنحة الحركة الإسلامية مثل حزب الإصلاح وضيق النظام السياسى بالمعارضة ككل إلا أن الممارسات الديموقراطية تظل هى الغالب. ويعتبر حل البرلمان ضربة قاسمة للتجربة الديموقراطية إذا ما لجأ إليها أمير البلاد، وتؤدى إلى العنف السياسى من الجماعات الإسلامية والجماعات المضادة.

وقد وعت البحرين أخيراً الدرس وتبنت نفس التجربة الديموقراطية فى شكل تغيير النظام السياسى من أميرية لا دستورية إلى ملكية دستورية كما كانت تنادى به الحركة الإصلاحية مثل الأفغانى منذ قرن والنصف. وعادت المعارضة من الخارج، القومية أو الإسلامية أو الليبرالية. وعاد الأساتذة الجامعيون المفصولون إلى أعمالهم. ورد الاعتبار لأصحاب "العريضة" خاصة فى مجتمع أغلبه من الشيعة والفقراء.

وقد كان النظام الملكى فى المغرب سباق لهذا النمط عندما كان الملك يسمح بتنظيم الإخوان المسلمين المؤيد للعرش بالتواجد الشكلى دون أن يكون له أية قوة مؤثرة فى الحياة السياسية. فالملك هو أمير المؤمنين. ومحمد خامس وعلال الفاس شخصيات وطنية دينية. وحزب الاستقلال من تكوين علماء القرويين. فالدين موجود فى السياسة باسم النظام السياسى وليس بضغط من الإخوان المسلمين. فإذا ما خرجت حركة إسلامية على هذا النمط استبعدت وهمشت وطوردت وحكم على أمرائها بالإعدام مثل حركة الشبيبة الإسلامية، وجماعة العدل والإحسان (عبد السلام يسن) الذى حددت إقامته الجبرية بعد كتاب خطاب للملك الشاب محمد

السادس عن الانفراجة الديموقراطية فى أول عهده وضيق الخناق من جديد على جماعة العدل والإحسان اعتماداً على أن الاشتراكيين فى الحكم ولهم الأغلبية البرلمانية، واقتداء بلعبة الحكام فى المشرق بضرب أجنحة المعارضة السياسية بعضها بالبعض الآخر طبقاً لجدل الخطر العاجل والخطر الآجل، وتقديم الأول على الثانى.

وقد سار النظام السياسى فى اليمن فى نفس التجربة الديموقراطية بعد أن كسب شرعية جديدة فى الحفاظ على وحدة البلاد شمالاً وجنوباً من خطر الانفصال. وبالرغم من بعض ممارسات العنف من حزب الإصلاح فى اليمن المرتبط بالإخوان المسلمين إلا أن التجربة الحزبية التعددية مازالت مستمرة بالرغم من حصول الحزب الحاكم على الأغلبية فى البرلمان، والتوتر بين جناحى المعارضة، الإسلامى والقومى مما ينذر أيضاً بلعبة ضرب بعضها بالبعض الآخر اقتداء بمصر.

وهناك نمط ثالث فى تجارب مصر وسوريا والعراق وليبيا كنظم عسكرية فى نشأتها، والسعودية وعمان وقطر والإمارات كنظم ملكية أو سلطانية أو أميرية (نسبة إلى أمير) أو حاكمية (نسبة إلى حاكم). يقوم النظام السياسى فيه على الانقلاب العسكرى ويستمد شرعيته من الثورة أو على الملكية ويستمد شرعيته من الوراثة. ولما كان الانقلاب العسكرى والملكية الوراثية نظامين غير إسلاميين لأنهما لا يقوما على البيعة والاختيار الحر من الشعب فإن الشرعية تنقصه مما يجعل شعارات الحركة الإسلامية مثل "الحاكمية لله" تمثل خطراً عليه. لذلك لا يسمح هذا النمط الثالث بشرعية الحركات الإسلامية لأنها تمثل خطراً عليه وبديلاً له فى آن واحد. فهناك صراع مكبوت بين النظام السياسى والحركات الإسلامية يؤذن بالانفجار، بل ويتفجر بين الحين والآخر كما هو الحال فى المعارضة الإسلامية الشيعية فى العراق المهاجرة خارجه، والمعارضة الإسلامية فى ليبيا التى وصلت إلى حد الصدام المسلح فى الجبال بالقرب من بنى غازى منذ عامين، والإخوان المسلمون فى سوريا بعد مذبحة حماة ودخولهم السجون أو الإفراج عنهم

ودخولهم فى ائتلاف حكومى. والحركات الإسلامية فى مصر، خاصة جماعة الجهاد، والتى مازالت ترى أن نظام الحكم لا شرعى تجب مقاومته حتى ولو سقط الأبرياء مثل الاعتداء على السياح الأجانب ورموز الدولة.

ويوجد نفس النمط فى النظم الملكية فى السعودية والسلطانية فى عمان والحاكمية (نسبة إلى الحاكم) فى الإمارات والأميرية (نسبة إلى الأمير) فى قطر. وتستمد هذه النظم شرعيتها من الإسلام بطريقة أو بأخرى، فالملك فى السعودية خادم الحرمين، والإسلام ثقافة وحضارة وسلوك الناس فى سلطنة عمان وإمارة البحرين والإمارات العربية المتحدة. ويأتى التمايز ببروز أجنحة إصلاحية فى الحركة الإسلامية التقليدية مثل الوهابية الجديدة فى السعودية والتى ترفض بعض الممارسات السياسية التى تتم فى السعودية باسم الوهابية التقليدية مثل الاعتماد المتزايد على الولايات المتحدة الأمريكية بعد حرب الخليج واستدعاء القوات الأجنبية وبعض مظاهر البذخ فى العائلة المالكة. لا فرق فى ذلك يبن القوى الإسلامية والقوى الوطنية الأخرى الليبرالية والقومية. الأنمة والمثقفون وجماعات حقوق الإنسان والمجتمع المدنى والحركات النسائية.

والنمط الرابع وهو الأشد توتراً بين النظام السياسى والحركة الإسلامية فى السودان والجزائر. ففى السودان حدث انقلاب قادته الحركة الإسلامية والجيش أى قريش والجيش، السلطة الدينية والسلطة العسكرية. بعدها هاجرت القوى الحزبية خارج السودان وكونت جبهة معارضة فيها الجيش الشعبى لتحرير الجنوب وزعيمها رئيساً لقوات المعارضة لسفك الدماء بين المواطنين. ومازال الصراع دائراً بعد اعتقال حسن الترابى بعد اتفاقه مع قرنق. وقد يصل الأمر إلى حد الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب كما هو دائر الآن أو بين الشمال والشمال. وفى نفس الوقت يخضع السودان لحصار خارجى واعتداء على مصنع الشفاء بتهمة تكوين أسلحة جرثومية. والناس فى الجنوب جوعى وعطشى باسم الحكومة والمعارضة، الإسلام والعسكر.

والأخطر من ذلك كله الجزائر التى تدور فيها حرب أهلية بين الاخوة الأعداء، الإسلاميين والدولة، بعد الانفراجة الديموقراطية إثر الهبة الشعبية أثناء حكم الشاذلى بن جديد، ونجاح الحركة الإسلامية فى المجالس التشريعية، وإلغاء الجيش لنتائجها، وتحول الحركة الإسلامية إلى القتال المسلح لتستعيد انتصارها الانتخابى الذى سلبه منها الجيش. والنتيجة ما يقرب من سبعين ألف شهيد من النساء والأطفال والشيوخ. ولم ينجح قانون الوئام الوطنى فى إنهاء الحرب. كما لم ينجح الخلاف بين قادة الحركة الإسلامية حول بشاعة الحرب وجدواها فى توقفها أو التخفيف من حدتها. تخون الدولة الإسلاميين لأنهم يقتلون أبناء الوطن الأبرياء، ويكفر الإسلاميون الدولة لأنها لا تحكم بالشرع ونموذج النظام التسلطى. كل فريق يقصى الآخر ويستبعده. ونهاية النفق لم تظهر بعد.

٦ـ مستقبل الإسلام السياسى.

يتضح من جدل الشرعية واللاشرعية أنه فى النظم السياسية الديمقراطية التى تصبح فيها الحركة الإسلامية حركة شرعية معترف بها تكون أقرب إلى الاستقرار السياسى. بل يتحول الخطاب السياسى الاسلامى من شعاراته الرافضة إلى خطاب سياسى يقوم على برنامج يبنى ولا يهدم، يحاور ولا يستبعد. كما يطمئن النظام السياسى إلى أن استقراره مشروط بالديموقراطية، وإعطاء الشرعية للحركة الإسلامية أسوة بباقى القوى والأحزاب السياسية المعترف بها، القومية والليبرالية بل والماركسية. فليس من المعقول أن يكون البعيد أولى بالشرعية من القريب. بل إن الحركة الإسلامية هى التى تقوم ببعض مهام الدولة كما هو الحال فى لبنان فى تحرير الجنوب المحتل، وحماس والجهاد فى فلسطين بعيداً من أو بالاتفاق مع السلطة الوطنية الفلسطينية. وتنشط الحياة الحزبية، وتقوى التجربة الديموقراطية فى النظم التى تعترف بشرعية الحركة الإسلامية مثل الأردن والكويت واليمن، وربما تكون المغرب والبحرين على الطريق. فهى تعددية حزبية ذات طابع ثنائى. تضع حدوداً على أحادية الحزب الحاكم وسلطته المطلقة، وتجعل الناس أقدر على

الاختيار الحر الديموقراطى بين بديلين، وبدلاً من أن يصبح التوتر قائماً بين مصر وسوريا والعراق وتونس بين النظام السياسى والحركات الإسلامية السرية تحت الأرض أو المهاجرة خارج الأوطان، وحدوث انفجارات وعنف بين الحين والآخر. يمكن للنظم السياسية أن تستقر، وللحركات الإسلامية أن تعيش فى جو سياسى صحى لو أعطيت لها الشرعية وتحولت إلى أحزاب سياسية ذات برامج اجتماعية واقتصادية، ويصبح الإسلام باعتباره ثقافة شعبية حاملاً طبيعياً للاحتجاج السياسى والاجتماعى.

مازالت العقبة الرئيسية الآن هو نقص الشرعية المزدوجة بين النظام السياسى والحركة الإسلامية. ومازال كل طرف يريد إقصاء الآخر، النظام السياسى يريد القضاء على كل صنوف المعارضة البديلة وليس الحركة الإسلامية وحدها. والحركة الإسلامية باعتبارها أقوى جماعات المعارضة تريد أن تسقط النظام وتحل محله إن لم يكن بالفعل فعلى الأقل على مستوى التمنى والإعلام. مازال الثقل التاريخى للصراع فى الماضى يمنع من الحوار فى الحاضر والائتلاف فى المستقبل. مازال تخوف كل طرف من الآخر والترصد به قائماً من أجل تحين الفرصة للانقضاض عليه والتخلص منه وهو لا يعلم أنه بذلك إنما يقضى على نفسه، وهدم المعبد كله بسياسة شمشون.

كان شرط النظام السياسى للاعتراف بالحركة الإسلامية حركة شرعية هو أن تنبذ العنف، وتقبل قواعد اللعبة الحزبية، وتحول شعاراتها إلى برامج سياسية مثل باقى الأحزاب لأن الدستور يمنع من إقامة حزب على أساس دينى وإلا تحولت الدولة إلى مجموعة من الأحزاب الطائفية. وقامت الحركة الإسلامية بالالتزام بهذا الشرط. وقدمت طلباً إلى لجنة تقديم الأحزاب بمجلس الشورى لتأسيس حزب كما حدث فى مصر بتقديم بعض أجنحة الحركة الإسلامية طلباً لتأسيس حزب "الوسط". ومع ذلك يرفض النظام السياسى بحجة أن البرنامج لا يقدم جديداً بالنسبة للأحزاب الموجودة. بل ويقوم بالقبض على الأعضاء المؤسسين بتهمة

تأسيس حزب لا شرعى للاخوان وهى جماعة منحلة منذ ١٩٥٤ بالرغم من أن الصحافة تتحدث عن نشاطها واجتماعاتها وفوزها أو خسارتها فى الانتخابات العامة أو المحلية كمستقلين. والآن تتم محاولة أخرى لإنشاء حزب "العدالة" والانتظار يطول دون موافقة أو رفض. وهو نفس السيناريو التركى فى تكوين أحزاب إسلامية مثل حزب "رفاه" ثم حزب "الفضيلة" فى دولة علمانية تعلن رسمياً أيضاً تحريم قيام أحزاب دينية. وتبدو العلمانية تسلطية اقصائية، مطلقة أحادية الطرف كنظام ثيوقراطى بديل.

وحدث نفس الشىء فى تونس عندما كونت الحركة الإسلامية حزب "النهضة" لراشد الغنوشى، لا يختلف فى برنامجه كثيراً عن باقى الأحزاب العلمانية التونسية. يسلم بالتجربة الديموقراطية ويعترف بأنه جزء منها. ينبذ العنف، ويعترف بحقوق الإنسان والمرأة وحق الجميع فى توزيع عادل للثروة بحيث تجعله حزباً وطنياً ليبرالياً تقدمياً. ومع ذلك يرفض النظام السياسى الاعتراف به ويطارد أعضاءه، ويريد القبض على رئيسه، ويظل هائماً على وجهه فى العواصم الغربية متمتعاً بحرية التنقل والتعبير، بعض مآثر الغرب، منتظراً تغيير النظام السياسى بانقلاب عسكرى مضاد أو شعبية عارمة حتى تعود الليبرالية والتعددية الحزبية وحقوق الإنسان.

وقد بدأ الإفراج عن الإخوان فى سوريا فى العهد الجديد بعد مذبحة حماة فى العهد القديم وتدمير المدينة بعد هبة الإخوان فيها. وطالب الإخوان بنسيان الماضى وبداية عهد جديد يتم لهم فيها الاعتراف بالشرعية وحق تكوين جماعة لهم يمارسون من خلالها نشاطهم. ومع ذلك لم يوافق النظام السياسى على شرعية الجماعة إلا من خلال الائتلاف الحكومى كأفراد وليس كجماعة، كأعضاء وليس كتنظيم. ومازال العهد الجديد متأرجحاً بين الانغلاق والانفتاح، بين عادة القديم ومتطلبات العهد الجديد، بين النظام السياسى الواحد والتعددية الحزبية.

ومن ثم توضع الحركة الإسلامية بين المطرقة والسندان. إذا دافعت عن

وجودها ومارست نشاطها بالعنف اتهمت بتدبير انقلاب على نظام الحكم وممارسة العنف وارتكاب الجرائم وتهديد الأمن الوطنى فى الداخل والقومى فى الخارج. فإذا نبذت العنف وقبلت قواعد العمل الديموقراطى وأرادت أن تكون جزءاً من نسيج المجتمع وحركة التاريخ رفض النظام السياسى خشية حصولها على الأغلبية البرلمانية. ويكون النظام السياسى فى الحالتين هو الخاسر، ولكنها خسارة على الأمد القصير للنظام السياسى، ومكسب على الأمد الطويل للوطن.

والنظام السياسى أيضاً بين المطرقة والسندان. إذا هو قبل شرعية الحركة الإسلامية كحزب سياسية يكون هو الضحية لأن الحزب الجديد سيفوز بالأغلبية البرلمانية نظراً لرفض الناس للحزب الحاكم الذى يكون خاسراً على الأمد القصير. وإذا رفض الترخيص للحركة الإسلامية لتكون حزباً سياسياً فإنه يكون أيضاً الخاسر على الأمد الطويل ولن يبق أمامه إلا العنف ومقابلة النظام السياسى له بالعنف، ويزداد قتل الأبرياء كما هو الحال فى الجزائر.

والحقيقة أنه لا بديل عن التعددية السياسية كنظام للحكم وتكوين جبهة وطنية ائتلافية بين جميع القوى السياسية بما فى ذلك الحركة الإسلامية سواء كانت حزباً أو جماعة طبقاً لنتائج صناديق الاقتراع، نظراً لاستحالة وجود أغلبية سياسية حالياً لا لأحزاب السلطة ولا لأحزاب المعارضة. فهناك أربع قوى سياسية فىأصلها تيارات فكرية فى الوطن العربى: الليبرالية والقومية (الناصرية، الاشتراكية العربية). والماركسية بالرغم من انهيار نظمها منذ عقد من الزمان، والحركة الإسلامية. كل منها حكم بمفرده. حكمت الأحزاب الليبرالية فى الوطن العربى قبل الثورات العربية الأخيرة منذ أوائل الخمسينات ومازالت تحكم فى الكويت واليمن ومصر والأردن والمغرب ولبنان والسودان فى النظم الملكية أو النظم العسكرية. ومازالت الناس تحن إليها نظراً لما ترجوه من حرية سياسية وليس فقط حرية اقتصادية. والقومية حكمت بعد الثورات العربية الأخيرة كنظم عسكرية فى مصر وسوريا والعراق واليمن وليبيا وبعد حركات التحرر الوطنى مثل الجزائر. وقد انقلب معظمها إلى عسكرية

ليبرالية بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ أو إلى عسكرية خالصة كما هو الحال فى تونس. ظلت العسكرية وتغيرت الاشتراكية إلى الليبرالية بلا قيمها. فعم الفساد والسرقة ونهب المال العام. حدث ذلك فى مصر أولاً وسوريا ثانياً واليمن ثالثاً. ولم يعد يبقى عليها إلا العراق المحاصر منذ غزو الكويت وليبيا المحاصرة بتهمة لوكربى ومساعدة الإرهاب. والماركسية لم يعد لها صوت إلا فى جبهة ائتلافية فى سوريا والعراق أو بقايا أحزاب متناثرة فى لبنان. والحركة الإسلامية هى الأظهر فى لبنان والسودان والكويت واليمن والمغرب والأردن وبعض فصائل المعارضة العراقية والتونسية فى الخارج وفى الداخل مثل مصر والجزائر.

التعددية السياسية إذن أمر واقع فى الفكر السياسى العربى الحديث، ولا يمكن لتيار إقصاء آخر. تختلف فى التمثيل وفى ممارستها طبقاً لشرعيتها أو لا شرعيتها. وقد تتفق فيما بينها على بعض الأهداف القومية المشتركة بل وفى الوسائل أيضاً، ولا تتعدد إلا الأطر النظرية أو البواعث. فالتيارات الأربعة تتفق فيما بينها على تحرير فلسطين باسم القومية العربية عند الناصريين والقوميين، وباسم تحرير أراضى فلسطين عند الوطنيين الليبراليين، وباسم القوى العاملة، الفلاحين والعمال، ضد الاستعمار الاستيطانى أعلى مرحلة من مراحل الرأسمالية عند الماركسية، وباسم انجهاد وتحرير الأراضى المقدسة والمسجد الأقصى عند الإسلاميين. ولا تختلف فى ذلك النظم السياسية الحاكمة، قومية أو ليبرالية أو إسلامية، ملكية أو عسكرية، إمارة أو دولة، سلطنة أو جمهورية، مملكة أو جماهيرية. الهدف واحد وتتعدد الأطر النظيرة والوسائل العملية.

كما تتفق التيارات الأربعة ولو قولاً على حرية المواطن وحمايته ضد صنوف القهر والتسلط. فذاك شعار الليبرالية وما تؤكده على حرية التعبير والحركة، وحق تكوين الأحزاب، وتستمد منه شرعيتها. والحرية والاشتراكية والوحدة الشعار الرئيسى فى الحركة القومية، مع التركيز على حريات الشعوب أكثر من حريات الأفراد، ولا فصل بين الخبز والحرية. والماركسية أيضاً تقوم على تحرر الأفراد من

الاستغلال، والشعوب من الاستعمار. فالغاية من الاقتصاد الموجه القائم على التخطيط وتوجيه الدولة والملكية العامة لوسائل الإنتاج التحرر السياسى للأفراد من سيطرة رأس المال. والحركة الإسلامية شعاراتها فى الحرية والمساواة فى قول عمر بن الخطاب الشهير "لم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟". وإن شهادة "لا اله إلا الله" لهى إعلان لحرية الضمير الإنسان من كل صنوف القهر البشرى بفعلى النفى "لا اله" ثم الإثبات "إلا الله"[1].

وفى وحدة الأمة تتفق التيارات الأربعة على تحقيقها باسم وحدة الأمة الإسلامية وتجاوز الحدود المصطنعة التى وضعها الاستعمار باسم الإسلام والوحدة الإلهية التى تنعكس فى وحدة الأمة، وباسم وحدة الأمة العربية والقومية التى تتجاوز حدود الدولة القطرية، وباسم وحدة الطبقة العاملة، العمل والفلاحون "يا عمال العالم اتحدوا" فى الماركسية، وباسم وحدة السوق وقوانينه فى الليبرالية، حرية الاستيراد والتصدير والشركات المتعددة الجنسيات. وفى عصر العولمة تتحدد الكيانات الصغرى فى تجمعات إقليمية أكبر، ولا تقوى الدول القطرية على المنافسة إلا فى تجمعات إقليمية أوسع وأشمل.

وفى تنمية الموارد الطبيعية والبشرية تتفق التيارات الأربعة عليها، باسم الإنسان سيد الطبيعة فى الليبرالية، وجدل الإنسان والطبيعة فى الماركسية، والتخطيط فى القومية العربية وتسخير الله كل ما فى الأرض لصالح الإنسان لتعميرها وسكناها والتمتع بخيراتها. وقد كثرت الأدبيات من مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية على التنمية المستقلة كشرط للتنمية المستدامة، وتحقيق التوازن فى ميزان المدفوعات، وزيادة معدلات التنمية ونقصان معدلات التضخم من أجل استيعاب الزيادة السكانية دون انخفاض فى مستوى المعيشة.

والدفاع عن الهوية ضد التغريب قضية رئيسية فى الحركة الإسلامية تصل إلى حد المفاصلة ﴿لكم دينكم ولى دين﴾، ضد تقليد الآخر. وهى أيضاً محور الفكر

---

(١) انظر دراستنا: ماذا تعنى شهادة "لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله"؟ الدين والثورة فى مصر جـ٧ اليمين واليسار فى الفكر الدينى ص١٤٧-١٦١.

القومى الذى يقوم على العزة القومية والاستقلال القومى بين المعسكرين الرئيسيين فى عصر الاستقطاب فيما سمى بعد الانحياز أو الحياد الإيجابى أو دول العالم الثالث. والماركسية تحققها عن طريق هوية العامل وعدم اغترابه عن عمله وتشيئه وتبعيته لصاحب رأس المال. والليبرالية تؤمن بهوية إنسانية عامة، هوية المدنية والتحضر، تقوم على مكتسبات العصر الحديث، هوية متوازنة تجمع بين القديم والجديد، بين الأصالة والمعاصرة منذ فجر النهضة العربية.

وفى حشد الجماهير ضد اللامبالاة والفتور لا تختلف القوى السياسية عليها. فالإنسان حمل الأمانة التى رفضتها السموات والأرض والجبال أن تحملها. والقومية العربية رسالة فى التاريخ تعبر عن نبض الجماهير وحركة الشارع. والماركسية تحرك الجماهير عن طريق الوعى الاجتماعي والإحساس بالظلم. والليبرالية بطبيعتها نشاط حر والتزام بالإنتاج والمنافسة وهو ما يحرك البشر ويجند الطاقات.

إن الصحوة الإسلامية التى بدأت بعد هزيمة ١٩٦٧ والثورة الإسلامية فى إيران، والإسلام فى أوربا الشرقية والغربية على السواء، والجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى، وفى أمريكا الشمالية وأفريقيا تدل على أن الإسلام قادم، وأن العالم الاسلامى ربما يكون على مشارف مرحلة ثالثة بدايتها فى القرن الخامس عشر الهجرى، بعد أن اكتملت المرحلة الأولى فى القرون السبعة الأولى نهاية بابن خلدون، وبعد أن اكتملت المرحلة الثانية بفجر النهضة العربية الحديثة فى القرون السبعة الثانية بعد ابن خلدون. قد تشهد المرحلة الثالثة عصراً ذهبياً للحضارة الإسلامية يشبه العصر الذهبى فى المرحلة الأولى والذى بلغ الذروة فى القرن الرابع الهجرى، عصر البيرونى والمتنبى وأبى حيان[1].

ليس التحدى هو فى قبول الصحوة الإسلامية أو رفضها ولكن التحدى هو أية صيغة للإسلام القادم، المحافظة التقليدية الموروثة من الغزالى، الأشعرية فى

---

(١) مقدمة فى علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١ ص ٦٩٥-٧١٠. محمد عابد الجابرى، حسن حنفى: حوار المشرق والمغرب، مدبولى، القاهرة ١٩٩٣ ص ٣٤-٣٧.

العقيدة والشافعية فى الفقه والاشراقية فى الفلسفة، والحرفية النصية الموروثة من السلفية القديمة والمعاصرة أم الإسلام العقلانى المستنير وريث الحركة الإصلاحية من الأفغانى ومحمد عبده وعلال الفاسى وعدالحميد بن باديس ومالك بن بنى والطاهر والفاضل بن عاشور والكواكبى ومحمد إقبال، وهو الإسلام التعددى الذى يقوم على شرعية الاختلاف، وقبول الحوار، والتعبير عن مصالح الأمة؟ هل هو الخطاب الأصولى الذى كثر الحديث عنه أم الخطاب ما بعد الأصولى الذى هو فى دور التكوين؟[1]. إن الحركة الإسلامية ليست كلاً واحداً الآن بل هى متعددة الأجنحة والاتجاهات من اليمين إلى الوسط إلى اليسار، بين النقل والعقل، والنص والواقع، والعقيدة والثورة، والحرف والتأويل. وهى تعددية طبيعية تستأنف التعددية القديمة، وحوار مع النفس قبل أن يتم الحوار مع الآخر.

إن تحليل "الإسلام السياسى بين الفكر والممارسة" لا يعتمد فقط على الأدبيات، الدراسات والبحوث والرسائل والمقالات فى الموضوع. فما أكثرها بالمئات. ويمكن القيام بذلك عن طريق تحليل التجارب الشعورية الفردية والجماعية من أجل إضافة رؤية جديدة على ما تم تحصيله من خلال الأرقام والجداول والإحصائيات والتواريخ وأسماء الأعلام. فالماهية أقرب إلى العلم من الوقائع، والاستبطان أكثر إدراكا من الإحصائيات. لذلك أصبح المنهج "الظاهرياتى" أحد المناهج الرئيسية فى الفلسفة والعلوم الاجتماعية القادر على إضافة جديد بدلاً من نقل المعلومات من مرجع إلى آخر، ومن مصدر إلى آخر.

ونظراً لأن الموضوع يتعلق بحركات ونظم سياسية موجودة على الساحة وأن كل تحليل علمى للعلاقة بينهما قد يغضب هذا الطرف أو ذاك فى مسألة وجود ومصير فإن الحرية الفكرية والبحث العلنى الموضوعى النزيه شرطان للفكر وللاستنتاج. صحيح أن الموضوعية الخالصة أو المحايدة لا وجود لها. فكل باحث له انتماؤه الفكرى والسياسى. ومع ذلك يمكن الوصول إلى نتائج عامة مقبولة من

(١) ومن رموزه كمال أبو المجد، ويوسف القرضاوى، وخلف الله محمد خلف الله، والإسلاميون التقدميون فى تونس، واليسار الاسلامى فى مصر، والاصلاحيون فى إيران.

الباحثين عن طريق تحليل التجارب الجماعية المشتركة. فالباحث مستقل عن السلطة والمعارضة وإن كان هواه هنا وهناك. والمصلحة الوطنية العليا هو الهدف المشترك للجميع، لا فرق بين الباحث والسياسي. وأفضل بحث نظري ما كان قائماً على الممارسة. وأفضل ممارسة سياسية ما كان قائماً على البحث العلمي.

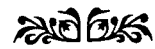

obeikandl.com

الديـــن
والشرعيـــة السياسيـــة

ليس الدين فقط هو مجموعة الشعائر والعبادات أو العقائد والإيمانيات أو المؤسسات والهيئات أو الأماكن والأزمنة المقدسة أو الأعياد والموالد أو الطرق الصوفية أو رجال الدين إلى آخر ما يدرس فى علم الاجتماع الدينى وفى علم التاريخ المقارن للأديان. وليس هو ما يتحقق فى التاريخ من حضارة وعمران أو من حروب وخراب، وكلاهما باسم الدين. وليس نظما سياسية "ثيوقراطية" تدعى أنها تحكم باسم الله أو باسم الدين أو باسم الشريعة وإلا كان الكيان الصهيونى دولة دينية، وكانت النظم السياسية القهرية التسلطية دولا دينية. وليس مجموعة من القوانين والشرائع تتقدمها الحدود، القتل وقطع الأيدى والأرجل والرقاب والصلب على جذوع النخل والاتهام بالكفر والردة. وكلها صور سلبية وممارسات فعلية للتدين الشعبى والرسمى.

إنما الدين أيضا هو الموروث الثقافى المتراكم عبر التاريخ والذى تحول إلى ثقافة شعبية اتحدت مع خبرة الشعوب والتى عبرت عنها فى الأمثال العامية وسير الأبطال والقصص الشعبى. إذ يستشهد العامة والخاصة على حد سواء بالآيات القرآنية وبالأحاديث النبوية كما يستشهدون بالأمثال العامية والأقوال المأثورة.

(*) مجلة الديموقراطية، العدد ١٢- السنة الثالثة، أكتوبر ٢٠٠٣.

كلاهما حجة سلطة لفهم الواقع يقوم على النقد الاجتماعى وإيجاد مبررات للسلوك الفردى والجماعى. هو الذى يحدد رؤية الناس للعالم، ويعطيهم موجهات للسلوك. هو المخزون النفسى الحاضر عبر الماضى والمتواصل معه دون إحداث قطيعة بين الماضى والحاضر كما فعلت أوروبا فى بدايات عصورها الحديثة أو تجاور وتقسيم عمل بينهما، الموروث للحياة الخاصة، والحداثة للحياة العامة. وهو موقف له ما يشابهه فى معظم الثقافات الدينية، الهندوكية والبوذية والكونفوشية واليهودية والمسيحية مباشرة أو عن طريق غير مباشر فى الاتجاهات الحديثة منها[1].

وفى تاريخنا الحديث خرجت معظم حركات التحرر الوطنى من الموروث الثقافى والإسلامى. فقد حدد الأفغانى هذا المشروع التحررى: الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج، والقهر فى الداخل[2]. وعلى إثره قامت الثورات التحررية الإسلامية ممثلة فى الثورة العرابية فى مصر فى ١٨٨٢، والثورة المهدية فى السودان. واستمر الإسلام الوطنى عند قادة ثورة ١٩١٩ من تلاميذ محمد عبده، تلميذ الأفغانى. بل وتحول إلى نهضة شاملة وتحديث عصرى. وحدث نفس الشىء فى المغرب العربى عند علال الفاسى فى المغرب، وعبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمى ومالك بن نبى فى الجزائر، والسنوسى وعمر المختار فى ليبيا، وحسن البنا وجماعة الإخوان فى مصر وانتشارها فى الوطن العربى، وفى الشام عند الكواكبى بحثا فى "طبائع الاستبداد" عند الحكام، واللامبالاة والفتور فى "أم القرى" عند المحكومين. وفى فلسطين عز الدين القسام ثم حركة المقاومة الإسلامية حماس والجهاد. وفى لبنان الأحزاب الإسلامية خاصة حزب الله الذى قاد حركة تحرير الجنوب من الاحتلال الصهيونى. وفى اليمن الأئمة الأحرار مثل زيد المشكى. بل إن الوهابية فى ظروف شبه الجزيرة العربية كانت حركة إصلاحية ضد مظاهر الوثنية والشرك مثل التوسط بين الإنسان والله بالأولياء وبالرقى والطلسمات والأشجار

---

(١) انظر: التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠، ص١١-٢٠.

(٢) انظر: جمال الدين الأفغانى، المانوية الأولى (١٨٩٧-١٩٩٧)، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.

والعظام المباركة. ثم تحولت إلى وهابية سياسية لتوحيد القبائل وتأسيس مملكة موحدة قبل أن تتحول الوهابية إلى سلفية دينية وقهر سياسى حتى ولدت الوهابية الجديدة التى تقبل الوهابية السلفية فى العقيدة ولكن ترفض فساد النظام الحاكم ووجود القوات الأجنبية على أراضى البلاد. وساهم الإسلام فى حركات التحرر الوطنى فى آسيا، فى إندونيسيا وماليزيا والهند وباكستان. وبلغ الذروة فى الثورة الإسلامية فى إيران، ووصول كثير من الأحزاب الإسلامية إلى السلطة عن طريق صناديق الاقتراع كما هو الحال فى تركيا والمغرب وليس عن طريق الانقلاب كما هو الحال فى السودان.

وبعد نجاح حركات التحرر الوطنى واستقلال الدول الحديثة بدأت إعادة بناء الدولة الموروثة من الحقبة الاستعمارية ببرنامج للتحديث والتنمية واعتمادا على التخطيط والتصنيع. وخرج التسلط التقليدى من الموروث القديم لتأسيس دولة تقوم على الزعيم الأوحد، وتحكم باسم الحزب الواحد، وتدعو إلى الرأى الواحد، والاختيار الأيديولوجى الواحد باسم القيادات التاريخية التى قادت حركات التحرر الوطنى. وتنكرت لفرقاء النضال بالأمس. وبدأت تستأثر بالسلطة وحدها، والتخلص تدريجيا من باقى الفصائل. وتم حل معظمها إما بتهمة الانقلاب على نظام الدولة أو من أجل الدخول كطرف فى تحالف الحزب الواحد باسم الائتلاف الوطنى أو تحالف قوى الشعب العامل. وظل الأمر على هذا النحو بالرغم من القلق فى التنظيم السياسى القائم ، وعدم اختفاء التنظيمات المهمشة أو اللاشرعية الخاصة، الإسلامية والماركسية. وطالما كان هناك مشروع قومى قادرا على تجنيد الجماهير والدفاع عن مصالحها كانت الخلايا السياسية نائمة لا أثر لها وليس لديها القدرة على تجنيد الجماهير التى رأت فى اختيارات الدولة الوطنية خير معبر عن مصالحها.

ولما بدأ الفساد فى الداخل، وإثراء الطبقات الجديدة، والإغراق فى الشعارات الوطنية البراقة، واتساع المسافة بين الأقوال والأفعال، بين المبادئ المعلنة والإنجازات الممكنة، وتحول القوات المسلحة إلى الداخل أكثر من الخارج جاءت

هزيمة يونيو لإعلان نهاية النظام السياسى الذى تبنته الدولة الوطنية. وبالرغم من انتصار أكتوبر ١٩٧٣ إلا أن ما تلتها من تحولات اجتماعية واقتصادية بداية بقانون الاستثمار فى ١٩٧٥، ثم زيارة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ بعد هبة يناير من نفس العام، واتفاقيات كامب ديفيد فى ١٩٧٨ ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل فى ١٩٧٩، والتحول من الاشتراكية إلى الرأسمالية، ومن الصديق الشرقى إلى الحليف الأمريكى الذى بيده ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى الشرق الأوسط، وزيادة تبعية الدولة، والقدر الهائل من التغريب والأمركة بل وتشجيع الدولة للجماعات الإسلامية لتصفية الناصريين بعد هبة يناير ١٩٧٧، بعد هذا كله، استيقظت الخلايا النائمة. وبدأت الجماعات الإسلامية تتحول من الهامش إلى المركز. تعرض نفسها كقوى بديلة قادرة على الإنقاذ الوطنى من التبعية والانعزال فى الخارج، والقهر والفساد فى الداخل. واستطاعت تجنيد الناس ضد النظام القائم، والنجاح فى معظم انتخابات الاتحادات والنقابات المهنية والطلابية، وتمارس نشاطها العلنى بالرغم من سلاح اللاشرعية المسلط عليها. وكثر الحديث عن: "الصحوة" الإسلامية، "الظاهرة" الإسلامية، "الإسلام السياسى"، "الثورة" الإسلامية لتشير إلى نفس الشىء، الإعلان عن حقبة تاريخية قادمة لا يظهر منها حتى الآن إلا قمة الجبل دون أسفله الذى مازال مغمورا تحت الماء، لا يظهر منها فوق السطح إلا الينابيع التى تخرج منها كثير من المياه الجوفية التى لا يراها أحد.

وكانت الأرض خصبة لانتشار الجماعات الإسلامية ولإعطاء نفسها شرعية من الأمر الواقع. فهى من الناس ومع الناس وللناس. ألحقت بالمساجد دورا للمناسبات للأحزان والأفراح، والعيادات الطبية بدلا من مغالاة الأطباء، وفصول التقوية بدلا من الدروس الخصوصية التى أرهقت ميزانية الأسرة. بل وإيجاد أعمال للعاطلين، وساحات رياضية للشباب، وجمعيات خيرية للفقراء، وتزويج غير القادرين. شعر الناس بها أكثر مما شعروا بالدولة وأجهزتها. فأخذت شرعية من أسفل باسم الخدمات أقوى من الشرعية التى تمنح لها من أعلى باسم القانون. وهو سلاح فى يد الدولة تستعمله ضد خصومها السياسيين. كانت الجماعات أول من أهرع

لمساعدة منكوبى الزلزال الذى ضرب القاهرة فى أوائل التسعينات قبل أجهزة الأمن. فلما جاءت الأجهزة الرسمية احتكرت أعمال الإغاثة وسلبتها من أيدى الجماعات. وحدث نفس الشىء مع الجماعات اليسارية التى نظمت قوافل الإغاثة لشعب فلسطين ثم استولت عليها الدولة حتى لا تستعمل بؤرة لحركات شعبية أوسع تتحول إلى حركات سياسية غير مأمونة العواقب.

لم يستطع الحزب الحاكم ملء الفراغ السياسى لأنه نشأ فى حضن الدولة والنظام كأحد الوزارات. أعضاؤه موظفون متفرغون ومعينون من الرئيس كالوزراء والمحافظين ومديرى الأمن ورؤساء الجامعات، وتدخل جهاز الدولة، واللعب بقوائم الناخبين. لا يمثلون مصالح الشعب بل مصالحهم الشخصية. فهم نواب القروض، المتهربون من الخدمة العسكرية. ولم تستطع أيضا أحزاب المعارضة الماركسية والناصرية والليبرالية ملء الفراغ لأنها أيضا ولو بدرجة أقل تعتمد على زعامات تاريخية، وتضعفها الصراعات الداخلية، وتنحصر نشاطاتها داخل مقار الأحزاب أو فى إصدار الجريدة الأسبوعية أو اليومية المثقلة بالديون والتى تقوم الدولة بطباعتها، ولا يُسمح لها بأى تحرك شعبى إلا بتصريح من أجهزة الأمن.

لذلك نشطت الجماعات الإسلامية نابعة من قاع الشعب واستطاعت أن تكون المعبّر شبه الوحيد عن مطالب الجماهير. واكتسبت شرعية الأمر الواقع De Facto، وليست شرعية القانون De Jure. وبقدرتها التنظيمية بطريقة الخلايا العنقودية أصبحت قادرة على حشد الجماهير، وتنظيم المظاهرات العامة للاحتجاج على ما يحدث للوطن من مآسى ومذابح فى فلسطين والعراق وكشمير وقبلها فى البوسنة والهرسك وكوسوفو بل قد يمتد أثرها إلى الشيشان.

وانقسمت الأنظمة العربية قسمين تجاه الجماعات الإسلامية. الأول مازال يعتبرها منافسا خطيرا لها فى الحكم، ومازال يسلط سيف اللاشرعية عليها. فإذا ما ازداد نشاطها، اتهمت بتدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم، وقدم قادتها إلى المحاكم العسكرية التى لا نقض فيها ولا إبرام. هذا هو الحال فى مصر وتونس وليبيا

والعراق وسوريا والسعودية وعمان والإمارات. فإذا ما سمح نظام سياسى لتخفيف الضغط عليه بإجراء انتخابات شعبية يكون فيها الإسلاميون طرفا فيها فينجحون فى الانتخابات المحلية، ويحصدون حوالى ثلثى المجالس، ينقلب الجيش عليها باعتباره الوريث الشرعى لحركة التحرر الوطنى التى حصل بها الشعب على الاستقلال. فالجيش هو الحامى للشعب. وتغرق البلاد فى بحر من الدم، مائة ألف قتيل على مدى عشر سنوات بين الدولة والإسلاميين، صراعا على السلطة، سلطة الجيش ممثلة فى الدولة وسلطة الشرعية التى أتى بها الإسلاميون إلى المجالس المحلية. وتقدم سلطة الدولة ذريعة أن الإسلاميين غير ديموقراطيين، وأنهم أعلنوا أن هذه الانتخابات التى نجحوا فيها هى آخر الانتخابات. فلا تداول للسلطة، ولا تنازل عن الحكم. وتقع البلاد فى حرب أهلية طاحنة. وكان الوطن قد كسب أكثر وخسر أقل إن لم ينقلب الجيش على الدولة، وألغى نتائج الانتخابات. وترك الإسلاميين فى الحكم يواجهون مشاكل الفقر والبطالة والفساد والديون الخارجية. فإذا عرف الناس أنهم لم يحصلوا على شىء بالشعارات، ولم تحل قضاياهم بالعواطف الإيمانية لم ينتخبوا "جبهة الإنقاذ" من جديد. وتكون البلاد قد مرت بتجربة ديموقراطية فعلية تقوم على تداول السلطة بدلا من الاقتتال بين الاخوة الأعداء، وشق الصف الوطنى، وقتل الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ الذين لا حول لهم ولا قوة.

وقد يقوم الإسلاميون بانقلاب ضد الجيش كما هو الحال فى مذبحة حماه فى سوريا أو معه كما هو الحال فى الانقلاب الأخير فى السودان الذى ضم الجيش وقريش فى آن واحد. ولما استحال وجود نظام سياسى برأسين أقال الجيش قريشا، وحكم بمفرده. وتستمر لعبة شد الحبل بين الفريقين. فتتوقف الحياة السياسية لتعطيل الرئتين معا.

والثانى اعتراف الأنظمة السياسية بشرعية الحركات الإسلامية وقبولها أن تكون طرفا فى التعددية السياسية والمسار الديموقراطى، والاحتكام إلى صناديق الاقتراع، وقبول تداول السلطة على الأقل فى الشكل من حيث الإعلان والبداية،

وقد تكون النتائج والنهاية مختلفة، وتنتهى إلى نفس مأساة الجزائر. فقد قبلت الأردن والكويت واليمن والمغرب ولبنان التعددية السياسية. ودخل الإخوان المسلمون فى الأردن وحركة الإصلاح فى اليمن والكويت الانتخابات. تزداد مقاعدها فى دورة ثم تقل فى دورة ثانية بعد أن يدرك الناس أن الشعارات لم تحل شيئا، وأنه لا فرق بين عشائرية فى السلطة وجماعات إسلامية فى المعارضة. فكلاهما يحكمهما نفس المنطق، الحكم والسلطة، بصرف النظر عن البرامج السياسية والتغير الاجتماعى. لم تستطع الحركات الإسلامية الوصول إلى الحكم إلا فى المغرب وتركيا وإيران. فتجربة المغرب فى تداول السلطة مشهود لها، من حزب الاستقلال إلى الاتحاد الاشتراكى إلى حزب العدالة والتنمية. وحدث نفس الشىء فى تركيا من الأحزاب القومية إلى حزب رافاه إلى حزب العدالة والتنمية. وفى إيران تتجاذب الحياة السياسية والبرلمانية الصراع بين المحافظين والإصلاحيين. ونظرا لعدم حصول أى من القوى السياسية فى هذه التجارب شبه الديموقراطية الأغلبية المطلقة التى تساعدها على الحكم فإنها دخلت فى حكومات ائتلافية وجبهات وطنية مع باقى الأحزاب مما يساعد على تحويل الحركات الإسلامية شعاراتها الدينية إلى برامج سياسية واجتماعية تتقارب أو تتباعد مع باقى البرامج السياسية لباقى الأحزاب.

والنظم السياسية العربية الحاكمة نوعان: ملكية وعسكرية، قريش والجيش. الملكية تستمد شرعيتها من الوراثة: مات الملك، عاش الملك. والعسكرية تستمد سلطتها من الانقلاب العسكرى أو ثورة الجيش المباركة، أى القوات المسلحة حامية الدستور، وحارسة النظام. ومنها يكون الرئيس. يتوارث الجيش الرئاسة التى أصبحت حكرا عليه. وأصبحت الجمهورية الملكية موضوعا للتندر والفكاهة الشعبية فى الحياة اليومية. تحول العسكرى إلى ملكى، ولكن ظل الرئيس العسكرى هو صاحب السلطة التى يستمدها من الجيش. وله كل السلطة ولا يحتاج إلى نائب يفوّض له بعض السلطات ولو الشكلية، لأنه لا يوجد أحد من ملايين شعبه يستحقها وقادر على أدائها.

والحقيقة أنه لا فرق بين النظامين فى وراثة السلطة وتوريثها، العسكرية محصورة فى الجيش، والملكية محصورة فى العائلة المالكة. وتتعدد الواجهات الديموقراطية من مجالس الشورى والشعب والأمة والبرلمان. والتزييف هو الشائع. ونجاح الرئيس والحزب الحاكم بنسبة ٩٩,٩٪. وتزوّر كشوف الانتخابات. وينتخب الأموات مع الأحياء سواء كان ذلك بإشراف قضائى أو بدون إشراف. وتكون النتيجة الطعن فى الانتخابات بل وحل المجالس النيابية لعدم شرعيتها بقرار من المحكمة الدستورية العليا.

وكلا النظامين لا يستمدان سلطتيهما من الشعب، ولا يقومان على البيعة العامة واختيار حر للناس كما حدد القدماء "الإمامة عقد وبيعة واختيار". كلاهما "ثيوقراطى" البنية، اختيار إلهى، باسم الله أو باسم السلطان. وكلاهما قادر على كل شىء يعلم ويقدر، يسمع ويبصر، يتكلم ويريد. كلاهما له شرعية من أعلى، وتنقصه الشرعية من أسفل. والجماعات الإسلامية لها شرعية من أسفل عن طريق الخدمات للناس وليس لها شرعية من أعلى أى من القانون والاعتراف الرسمى بها.

وتستمد النظم القهرية خاصة العسكرية منها شرعية لها عن طريق الدين باسم تطبيق الشرعية الإسلامية. وهو أمر محبب إلى ثقافة العامة وتشدد النصيين. ويصبح الحاكم العسكرى الذى يستمد شرعيته الفعلية من الجيش الذى قام بالانقلاب حامى حمى الشريعة والمحافظ على تطبيقها ﴿إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾. وتسانده الجماعات الإسلامية المحافظة التى تعطى الأولوية للشكل على المضمون، وتعتبره الحاكم العسكرى الذى يعلن بلسانه تطبيق الشريعة الإسلامية خامس الخلفاء الراشدين أو إمام المسلمين إلى آخر الألقاب التى تزخر بها ثقافتنا القديمة. وهو يصالح الأعداء، وينقلب من الاشتراكية إلى الرأسمالية، ومن القطاع العام إلى القطاع الخاص، ويزداد البون الشاسع بين الأغنياء والفقراء، ويوضع المعارضين له فى المعتقلات. ويتكرر نفس الشىء فى باكستان - ضياء الحق، وفى السودان - النميرى، وفى نظم شبه الجزيرة العربية.

أصبح تطبيق الشريعة الإسلامية ووضع لجان برلمانية لذلك وإعطاء المثل على ذلك بقطع أيدى الفقراء السارقين أمام أجهزة الإعلام المحلية والغربية تخويفا للداخل وإقناعا للخارج بالحاكم الدموى القادر على قهر الشعوب. أما سارق الملايين من المعونات الأجنبية ومهربها خارج البلاد فى حسابات خاصة فلا تقطع يده. وفى الشريعة يوقف الحد إذا لم تتوافر الأسباب والشروط وحضرت الموانع مثل الفقر والبطالة والجوع والعرى والنوم فى العراء. بل يُحاسَب الحاكم نفسه لأنه لم يوفر للناس الأمن والغذاء والسكن والعمل والعلاج وإشباع الحاجات الأساسية. ويطبق الحد على الجميع، الحاكم قبل المحكوم، والغنى قبل الفقير، وإلا أصبحت الأمة "إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذ سرق فيهم الضعيف طبقوا عليه الحد".

ولا ضير أن تضيع وحدة الأوطان بسبب تطبيق الشريعة الإسلامية فى الأقطار التى شمالها مسلمون وجنوبها مسيحيون أو وثنيون مثل السودان وتشاد ومالى ومعظم الدول جنوب الصحراء. فالحاكم الشمالى الذى أتى بانقلاب عسكرى أو مدنى يمارس أنواع القهر القبلى أو العشائرى. ويعطى لنفسه شرعية الحكم باسم الدين وليس باسم الوطن. ومن مظاهره تطبيق الشريعة الإسلامية شمالا وجنوبا وهو ما يتنافى مع الشريعة الإسلامية ذاتها التى لا تطبق إلا على المسلمين. ولكل طائفة أن تحكم بكتابها. وهو أيضا ما قد يتنافى مع أصول الحكم الحديثة التى يتساوى فيها المواطنون فى الحقوق والواجبات. والحكم الشرعى هو تعليق تطبيق الشريعة حفاظا على وحدة الأوطان، وتساوى المواطنين جميعا أمام القانون.

وتهدد وحدة الأوطان أيضا إذا عاش المسلمون أقلية فى قطر غالبيته من غير المسلمين، وحاولوا القيام بحركة انفصالية لتكوين دولة إسلامية مستقلة. كان هذا هو الخطر الذى يهدد المسلمين فى جنوب أفريقيا، وهم مازالوا تحت أثر النظام العنصرى، خطر التصويت ضد المؤتمر الوطنى الأفريقى بزعامة نيلسوَن مانديلا من أجل وهم تكوين دويلات إسلامية فى كيب تاون ودوربان. مع أن الإسلام فى جنوب أفريقيا جزء من حركة التحرر الوطنى الأفريقى ومكوّن رئيسى فى جميع الحركات

المناهضة للعنصرية. فالوطن هو الجامع المشترك بين جميع المواطنين فى جنوب أفريقيا مع تعددية فى الثقافات والأطر المرجعية. ومازالت حركة تحرير مورو فى جنوب الفلبين تمثل هذا الاختيار فصل الجنوب المسلم عن الشمال المسيحى فى الفلبين وهو ما يتعارض مع وحدة الأوطان. وقبل ذلك تم فصل باكستان عن الهند مما سبب قضية كشمير، ومنعت الحدود الوطنية الجغرافية من انتشار الإسلام فى الهند، والفصل بين شعب واحد بدعوى التمايز الدينى بين الإسلام والهندوكية. فتخلت وحدة الأوطان عن شرعيتها واستبدلت بها شرعية الدين بانفصال باكستان عن الهند. مما وضع المسلمين فى الهند دون باكستان فى موضع الأقليات، والهندوس والمسيحيين وباقى الطوائف فى باكستان موضع الأقليات. بل إن باكستان نفسها انقسمت إلى شرقية فى بنجلاديش واقتصرت على الغربية منها نظرا للانقطاع الجغرافى بينهما. ومن ثم أصبحت تهدد الشرعية الدينية وحدة الأوطان.

وقد يعطى الحاكم نفسه الشرعية عن طريق رجال الدين التابعين له والمؤسسات الدينية الخاضعة لسيطرة النظام السياسى. ويكون ذلك عن طريق تكفير الخارجين على النظام، وتخوين المعارضة السياسية. والحكم الشرعى أنهم خوارج العصر، دعاة الفتنة، مبدلوا الدين وطبقا للرواية "من بدل دينه فاقتلوه" وفى رواية أخرى " من بدل دينه وفارق الجماعة فاقتلوه". فالمعارضة شيوعية، والشيوعية كفر وإلحاد، "ومن لا إيمان له فلا أمان له". وكل معارضة فهى خروج على النظام، وعصيان للحاكم، وسبب للفتنة يجب استئصالها حتى عاشت معظم حركات المعارضة خارج الأوطان.

ويأخذ الحاكم مسوح المؤمنين، من لبس الجلباب، ومسك العصى، والسير كما يسير الطاعنون فى السن، والمتصلون بالله. الزبيبه فى الجبهة. وهو فى المساجد فى صلوات الجمعة، وفى الموالد والأعياد الدينية أمام أجهزة الإعلام. وهو كبير العائلة كالبطاركة القدماء، يدافع عن أخلاق القرية، وهى القيم التقليدية ضد الحداثة والعصرية والتغريب. فيأخذ شرعية من الماضى ليغطى على نقص شرعيته فى الحاضر. ويعطى الدين ما افتقدته السياسة.

الرأى رأيه، والحق ما يعلنه. فهو يمثل الفرقة الناجية، أهل السنة والجماعة، وغيره من المعارضة هى الفرق الهالكة الضالة. فيستعمل حديث الفرقة الناجية الذى يشكك فى صحته ابن حزم وكثير من الفقهاء لإضفاء الشرعية على نظام سياسى غير شرعى. مع أن حق الاختلاف حق شرعى، والكل راد والكل مردود عليه. ويغذى هذا النسق المعرفى نسق كونى آخر، تصور هرمى للعالم يحدد العلاقة بين الطرفين فى محور رأسى، بين الأعلى والأدنى، وليس فى محور أفقى، بين الأمام والخلف. ثم تتجلى هذه البنية المعرفية الكونية فى البنية الأخلاقية والاجتماعية فتنشأ أخلاق القرية، ورب الأسرة، وكبير العائلة، "سى السيد" الذى يطيعه الجميع فى "المجتمع البطرياركى".

ويعطى رجال الدين، فقهاء السلطان الشرعية الدينية للقرارات السياسية للحاكم. إن شاء مقاومة العدو الصهيونى المحتل لأراضى المسلمين والمعتدى عليها والراغب باستمرار فى التوسع والاستيطان، لا صلحة ولا مفاوضة ولا اعتراف بإسرائيل، يخرج رجال الدين بفتاوى تعطى شرعية لقرار الحاكم ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾. وإن شاء الصلح مع عدو الأمس وصديق اليوم والاعتراف والمفاوضة والصلح معه أتت شرعية جديدة وربما بنفس الرجال تبرر قرار الحاكم الجديد بالاعتراف بإسرائيل وإجراء المفاوضات ثم الصلح معها ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ بالرغم من أن إسرائيل لم تجنح إلى السلم حتى الآن، وتواصل اعتداءاتها اليومية على الشعب الفلسطينى. فقد الناس احترام فقهاء السلطان، ولم يصدقوا فتاويهم الشرعية. وصاغ الأدب الشعبى عدة أمثال عامية لنقد فتاوى السلطان.

وازدادت شرعية الجماعات الإسلامية تحت الأرض لأنها تفتى باسم الأمة والدفاع عن مصالحها الثابتة، وكفّروا فقهاء السلطان، وأجازوا تصفيتهم الجسدية. كما وصف فقهاء السلطان الجماعات الإسلامية بالخوارج، خوارج هذا العصر. وظل التراشق بسلاح الشرعية الدينية بين الفريقين. فالدين سلاح مزدوج بين الخصوم.

يستعمله كل فريق لصالحه. وكل فريق يجد فى القرآن والحديث والتراث الفقهى بغيته.

أما الطبقة المتوسطة فقد انقسمت إلى يمين ووسط ويسار. اليمين أقرب إلى الجماعات الإسلامية فى منطلقاتها النظرية ومواقفها العملية. واليسار أقرب إلى الجماعات اليسارية فى منطلقاتها النظرية ومواقفها العملية كما يتمثل فى "لاهوت التحرير". والوسط متأرجح بين الاثنين، أقرب إلى اليمين فى أسسه النظرية وإلى اليسار فى ممارساته العملية.

وتعطى شعارات الجماعات الإسلامية شرعية لرفض الأمر الواقع والتمرد على النظام الحاكم. فشعار "الحاكمية لله" لا يعنى أن الله ليأتى ليحكم ويخلص البشر مما هم فيه من مآسى بل تعنى رفض حاكمية البشر، رفض الأيديولوجيات العلمانية للتحديث، الليبرالية التى حكمت مصر قبل ١٩٥٢، والقومية أو الاشتراكية التى حكمت بعدها، والماركسية التى حكمت فى جنوب اليمن بمفردها أو فى تحالف فى سوريا العراق. فقد ضاعت نصف فلسطين فى ١٩٤٨ إبان العهد الليبرالى. وضاع النصف الآخر فى ١٩٦٧ فى العهد القومى. كما يعنى الشعار الحاكمية للقانون الإلهى ضد ظلم القوانين الوضعية وانتهاك حقوق الإنسان، وضياع حقوق المواطن.

كما يدل شعار "الإسلام هو البديل"، وشعار "الإسلام هو الحل" على طريق الخلاص من مآسى العصر وأحزانه بعد أن زادت رقعة الأرض المحتلة، وعظم قهر المواطن، واتسعت الهوة بين الأغنياء والفقراء، وتجزأت الأمة إلى أقطار فى طريقها إلى أن تصبح دوليات طائفية وعرقية تكون فيه إسرائيل أقوى دولة فى المنطقة تستمد شرعيتها من البيئة الجغرافية السياسية الثقافية المحلية بعد أن استمدت شرعيتها أولا من أساطير المعاد والشعب المختار.

وطالما أن الواقع فى أزمة، تسرى مثل هذه الشعارات لقدرتها على تجنيد الناس لما فيها من قوة على الرفض دون أن تعنى شيئا محددا، إيجابا لا سلبا. فلم تتحول إلى برامج سياسية اجتماعية اقتصادية تقدم حلولا عملية ملموسة لمشاكل

الجماهير. وهى شعارات مغلقة، لا تقبل الحوار ولا أنصاف الحلول. تـؤخذ ككل أو تترك ككل. هى أشبه بعناوين رئيسية فى الصفحات الأولى لجذب الانتباه. تدل على القدرة دون الدولة، والانتفاضة دون السلطة، والصرخة دون الكلام.

وتستمد الجماعات الإسلامية شرعيتها من لحظتين تاريخيتين. لحظة ابن تيمية وهزيمة المسلمين أمام التتار واحتلالهم بغداد وهم فى طريقهم إلى دمشق. مسلمون يقتلون مسلمين، ويغزون أراضى مسلمين، ويحكمون بشريعة خاصة بهم " الباسة" وليس بشريعة الإسلام، ومن ثم إصدار الحكم بتكفيرهم، وقياسا عليه تكفير كل من لا يحكم بشريعة الله. وابن تيمية حاضر فى الحركة الإصلاحية الحديثة منذ محمد بن عبد الوهاب حتى رشيد رضا والجماعات الإسلامية المعاصرة.

واللحظة الثانية هزيمة يونيو ١٩٦٧ والتى أصبح "معالم فى الطريق" لسيد قطب تعبيرا عنها. فقد انهار الحلم القومى، واحتلت مصر وسوريا وفلسطين. ولم يستطع النظام الذى استبعد الإخوان الدفاع عن حرمات البلاد واستقلال الأوطان. فاشتد التقابل بين حاكمية الله وحاكمية البشر، بين الإسلام والجاهلية، بين الله والطاغوت، بين الإيمان والكفر، بين النور والظلام، بين الحق والباطل، بين العلم والجهل. وحدث تقابل بين نفسية السجين ظلما، وتحت آلام التعذيب بالسياط وبالنار وبين الأوضاع الخارجية، العدل والظلم، الحرية والقهر، الاستقلال والاحتلال. فانتشر "معالم فى الطريق". وقدم إلى الجماعات أفضل نسق نظرى يعبر عن نفسية المضطهدين المختبئين تحت الأرض مثل الملقى فى غياهب السجن. وكان استشهاد سيد قطب فى أغسطس ١٩٦٥ بمثابة المؤشر على هزيمة يونيو ١٩٦٧ وكما صور ذلك نجيب محفوظ فى "الكرنك"، سياط تلهب أجساد المعتقلين فى السجون، وقنابل وصواريخ تقذفها الطائرات الحربية الإسرائيلية على القواعد والمطارات العسكرية المصرية، لا فرق بين الاعتداء على المواطن فى الداخل باسم الدفاع عن النظام والعدوان على الوطن فى الخارج باسم الدفاع عن النفس.

والتحدى بالنسبة للمستقبل هو التعامل مع المحافظة التقليدية الموروثة منذ ألف عام والسلفية أحد مظاهرها. وهى الرصيد التاريخى الذى يمد الجماعات الإسلامية بل وأجهزة الإعلام فى الدولة وفتاوى رجال الدين بما يحتاجونه من مصادر لتبرير مواقف كل فريق على اختلافهم فى المواقف والأهداف السياسية، وتعنى المحافظة إعطاء الأولوية للعبادات على المعاملات، وللعقائد النظرية على السلوك العملى، ولعالم الغيب على عالم الشهادة، وعلى الإيمان فى أشكاله الخارجية على العمل الصالح باعتباره المعبّر الوحيد عن الإيمان، وللدين كغاية فى ذاته على الدين كوسيلة لإسعاد البشر وتحقيق مصالحهم العامة.

وهو نفس التيار السائد فى أجهزة الإعلام، صفحات الفكر الدينى، والجرائد والمجلات الدينية، وحديث الروح، ودروس تفسير القرآن بعد صلاة الجمعة، ونور على نور من دعاة حرفيين مثل نجوم المجتمع بأزيائهم المعروفة. ولا فرق بين البرنامج الدينى و"ماتش" الكورة، والتمثيلية التليفزيونية، وفاصل من الرقص الشرقى وخطب الرئيس ونشاط حرمه. كل ذلك بؤر إعلامية تقوم بنفس الدور، ملء الفراغ السياسى والثقافى فى البلاد.

وفى نفس الوقت تشتد المحافظة الاجتماعية أمانا من الفقر، وحرصا عن الضياع، وحماية بالموروث الثقافى، وتعويضا عن مآسى العصر وأحزان الزمان، فيكثر التفويض إلى الله، ويزداد الاعتماد عليه، وتكثر الموالد ، وزيارة المقابر، والتبرك بأولياء الله الصالحين. وترسل الرسائل إلى الإمام الشافعى لتلبية طلبات المحتاجين. وتستدعى مريم العذراء والسيد المسيح لنفس الغاية. فإذا ما انسد طريق التغير الاجتماعى من أسفل انفتح طريق الدين من أعلى. ويتحول الدين إلى حلم المجتمع فى النجاة من أحزان العصر والتخلص من مآسيه.

التحدى إذن هو التحول من المحافظة إلى التحرر عن طريق تحويل الرافد التاريخى الأساسى من اختيار القدماء منذ الغزالى حتى حركات الإصلاح الدينى إلى مطالب المحدثين، من الأشعرية إلى الاعتزال كما حاول محمد عبده فى "رسالة

التوحيد"، ومن النص إلى الواقع كما حاول الشاطبى فى "الموافقات"، وعلال الفاسى فى "مقاصد الشريعة ومكارمها"، ومن التصوف السلبى إلى التصوف الإيجابى، ومن الفلسفة المنطقية الطبيعية الإلهية إلى فلسفة الذاتية كما هو عند محمد إقبال، ومن العلوم النقلية إلى العلوم العقلية مثل اجتهادات كثير من المحدثين.

كما يمكن الاعتماد على قوى التقدم والتغير الاجتماعى التى مازالت تبحث عن أيديولوجية تجمع بين الماضى والحاضر، بيت التراث والتجديد، بين شرعية الإسلام وشرعية الثورة كما حاول اليسار الإسلامى الذى مازال متهما من الإسلاميين أنه ماركسية مقنعة، ومن العلمانيين بأنه أصولية متخفية وتوزيع أدوار، ومن الدولة بأنه إخوانية شيوعية لأنه جزء من المعارضة الوطنية بجناحيها الرئيسيين، الإسلامية والقومية.

لا حل للصراع بين الشرعية الدينية والشرعية السياسية إلا بالشرعية التاريخية، وفك حصار الزمن عن الوعى القومى بين الانجذاب إلى الماضى كما هو الحال عند السلفيين، والانبهار بالمستقبل كما هو الحال عند العلمانيين، والانسداد فى الحاضر كما هو الحال عند سواد الأمة والتى لا تجد مخرجا لها إلا النزول تحت الأرض لاكتساب الشرعية الدينية أو الصعود إلى مراكز الحكم لاكتساب الشرعية السياسية أو الهجرة إلى خارج الأوطان لاستعارة شرعية من الآخر أو التوقف فى المكان حتى يتوقف القلب لانعدام الحركة ﴿ولكل أجل كتاب﴾ للأفراد ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ للشعوب.

obeikandl.com

المؤسسات والحركات الدينية في مصر

أولا: المثقفون والدولة.

يعز على المفكر أن يجد معظم المثقفين فى كنف الدولة وفى صفها يقومون بدور أئمة الهدى، يخرجون الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، وهو نفس منطق الفرقة الناجية الذى يحكم الدول وخصومها. فالدولة تعتبر نفسها الفرقة الناجية، وأن المعارضة هالكة فى النار، والمعارضة كرد فعل على الدولة تجعل نفسها الفرقة الناجية، وأن الدولة هالكة فى النار، وهو نفس المنطق الإطلاقى الاستبعادى الذى يحكم الفريقين، منطق التكفير والتخوين المتبادلين، تكفير المعارضة للدولة، وتخوين الدولة للمعارضة.

ولما كان للدولة الحديثة خصمان: الحركة الإسلامية والحركة العلمانية، ليبرالية أو اشتراكية أو ماركسية، الإخوان المسلمين من ناحية والوفد والناصريون والماركسيون من ناحية أخرى، فإنها اعتمدت على ضرب الفريقين بعضهما ببعض لنفى أحدهما بالآخر، والاعتماد مرة على فريق لتصفية الفريق الآخر حتى يبقى الحكم للدولة بعد إضعاف الجناحين الرئيسين فى المعارضة. فقد اعتمد الحكم فى مصر فى السبعينات على الجماعات الإسلامية، سلحها وشجعها، من أجل تطهير الجماعات المصرية من الاشتراكيين والتقدميين الممثلين فى "نادى الفكر الناصرى". وتم لها ما أرادت ثم بدأت الدولة تسير أكثر مما يجب فى التحالف مع الاستعمار

(*) الخبرة السياسية المصرية فى مائة عام، أعمال المؤتمر السنوى الثالث عشر للبحوث السياسية ٤-٦ ديسمبر ١٩٩٩، تقديم وتحرير د. نازلى معوض أحمد، مركز البحوث للدراسات السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

والاعتراف بالصهيونية فانقلبت عليها الجماعات الإسلامية واغتالت رمز الدولة فى ١٩٨١. وفى أواخر الثمانينات عندما اشتدت وطأة الجماعات بدأت الدولة فى الانفتاح على بعض كتاب اليسار العلمانى من أجل مصلحة مشتركة وهو الوقوف أمام الجماعات الإسلامية باعتبارها خطرا مشتركا يهدد الجميع، فهى العدو الذى يعمل ضد مصلحة الوطن بالتنسيق مع إيران والسودان وكأن أمريكا وإسرائيل هما الصديقان.

والآن، الدولة فى تقهقر، والجماعات الإسلامية فى تقدم. الدولة فى حالة دفاع عن النفس والجماعات فى حالة هجوم على الغير، تحاصر الدولة حيا شعبيا بخمسة عشر ألف جندى فى حى إمبابة، وتستعمل الأسلحة الثقيلة والصواريخ والطائرات المروحية لمهاجمة المنازل. وتتحسر الدولة على الديموقراطية وهى أول من يقضى عليها بمنع تكوين الأحزاب الفعلية وتزوير الانتخابات وتغيير قانون النقابات، وتندد باستعمال العنف من الخصوم وهى أول ما يستعمله. والمثقفون يسيرون مع الدولة طمعا فى منصب وهم أول الضحايا بعد أن تلفظهم الدولة إذا ما تغيرت موازين القوى، وأعادت الحساب، من أين يأتى الخطر؟ والكل حريص على السلطة، من بيده السلطة ويضحى بالوطن والمواطنين فى سبيلها كما تفعل الدولة، ومن هو خارج السلطة وينازع الدولة سلطانها أنه أحق منها بها، ومن يخدم الفريقين، الدولة أو خصومها من جماهير المثقفين لعلهم يحصلون على شىء من السلطة فى العاجل من الدولة أو الآجل من خصومها.

ظاهرة الجماعات الإسلامية إذن ظاهرة سياسية بالأساس، يظهر فيها الدين كأداة للاحتجاج نظرا لأنه أقرب الأيديولوجيات إلى قلوب الناس وعقولهم، ممتد عبر التراث بشكل ثقافتهم، ويحدد تصوراتهم للعالم، ويمدهم بمعايير السلوك وليست ظاهرة دينية.

الدين نفسه كالفن والفكر والعلم والأخلاق والقانون والسياسة، ظاهرة اجتماعية فى الفكر والممارسة مثل باقى الظواهر الإنسانية. ومن ثم تكون معالجتها معالجة اجتماعية سياسية، يمكن للحجج النقلية أن تكون أداة مساعدة لتحليل فكر

الجماعات كما يبدو من نصوصهم. فهو فكر نصى فى صياغته وإن كان اجتماعيا فى نشأته. لكن التحليل الاجتماعى لظاهرة موجودة لا يعتمد إلا على معرفة الأسباب الفعلية لنشأة الظاهرة وتكوينها بعيدا عن أخلاقيات ما ينبغى أن يكون وشرعياته. الوصف الموضوعى الذى يتتبع إنشاء الظاهرة وتكوينها هو الحكم عليها حكم من الداخل وليس حكما من الخارج.

لذلك تعتمد هذه الدراسة على التنظير المباشر للواقع، وتحليل التجارب الحية ووصف الأحداث المؤسفة التى يعيشها الجميع. المعرفة المباشرة من الواقع الحى أصدق من المعرفة المكتبية عن طريق التحليلات الإحصائية الكمية والكيفية واستعمال هذه المناهج أو تلك أو هذه النظريات أو تلك. ومعظمها مستقى من علوم الاجتماع الغربية والتى تحتاج إلى مراجعة قبل الاستعمال، وتحقق من صدقها قبل التطبيق. هذه دراسة أولية لا تعتمد على الدراسات الثانوية، رؤية مباشرة للواقع دون متوسطات نصية من أدبيات الموضوع. وما أكثرها.

والهدف من هذه الدراسة "الحاكمية تتحدى" هو التعبير عن لسان حال الجماعات الإسلامية وتصورهم للعالم وبواعثهم وأهدافهم تحليلا شعوريا عند الباحث وقد لا يكون شعوريا عند المبحوثين حتى أبلغ رسالتهم للناس وأعرض حالتهم على مثقفى مصر وقضاتها. فأنا من جمهور المثقفين، وقاض من القضاة أحكم بين الدولة وخصومها، وأعرض حالة تُسفك فيها الدماء كل يوم من الطرفين كما فعل ابن رشد من قبل بين المعتزلة والأشاعرة فى "مناهج الأدلة" وبين الفلاسفة والغزالى فى "تهافت التهافت". لست منحازا إلى أى أحد من الفريقين ولكنى منحاز إلى مصر وشعبها، حقنا للدماء، وحرصا على الوحدة الوطنية وتأكيدا على أن هذا الوطن للجميع. قد يرفضنى الخصمان ولكنى لا أرفض أحدا.

ثانيا: تحليل شعار "الحاكمية لله".

"الحاكمية لله" شعار هجومى لتقويض الأنظمة التى تنقصها الشرعية وتفتقر إلى نظرية السيادة باسم من تحكم؟ ومن الذى فوضها للحكم؟ وهى نوعان: الأول

نظام ملكى أو أميرى يقوم على الوراثة، ملك ابن ملك، وأمير ابن أمير. مات الملك عاش الملك، مات الأمير عاش الأمير كما هو الحال فى المغرب والأردن وشبه الجزيرة العربية وسطا وأطرافا. وهو نظام غير إسلامى، ابتدعه الأمويون الإخوان أولا ثم سار فيه العباسيون ثانيا، وكان الحكم البيزنطى الملكى هو النموذج ثالثا.

واستمر الحال كذلك فى التاريخ حتى الثورات العربية الأخيرة. وهو نظام غير شرعى لأن الإمامة فى الإسلام، تراث الأمة ومصدر شرعيتها عقد وبيعة واختيار. ولا تتوفر فيه شروط الإمامة من علم وقوة وعدل وتقوى كما حددها الفقهاء. هذه أقرب إلى التعيين بالوراثة بإرادة الملك السابق. والثانى نظام عسكرى منذ الثورات العربية الأخيرة التى قام بها الضباط الأحرار ضد الملوك والأمراء وإن انتهكوا الحريات بعد ذلك، فقد قاموا بانقلابات عسكرية ضد نظم الإقطاع المتعاونة مع الاستعمار كما هو الحال فى مصر وسوريا والعراق والسودان وموريتانيا والصومال، وكانوا قيادة جيوش التحرير الوطنية التى قادت حروب التحرير والاستقلال الوطنى كما هو الحال فى الجزائر واليمن. وهو نظام يقوم على الشوكة بتعبير الفقهاء القدماء أو على الغلبة بتعبير الحكماء. وهو أيضا نظام غير إسلامى لأنه لم يأت بالتبعية من أهل الحل والعقد وإن قام بعد ذلك بانتخابات صورية يكون فيها الضابط الحر، قائد الجيش ووزير الدفاع ومدبر الانقلاب هو المرشح الوحيد، وما على المواطنين إلا أن يقولوا نعم، نعم للوطنية ولا للخيانة، وتكون النتيجة ٩٩,٩٪ من أصوات الناخبين الأحياء منهم والأموات للبطل المغوار، الرئيس الأفخم والقائد الملهم وكبير العائلة والأخ الأكبر. كما تجمل النظم الملكية نفسها بمجالس شورى صورية على الطريقة القبلية تحت الخيمة لإبداء الرأى والنصح لشيخ القبيلة الذى يعطى العطايا لأفراد الأسرة المالكة اقتساما للغنيمة باسم القبيلة.

كلا النظامين إذن، الملكى والعسكرى، غير شرعيين تنقصهما الشرعية والسيادة، لا يدين لهما أحد بالولاء شرعا، تبدو الدولة مغتصبة للحكم، ويبدو المجتمع المستسلم لسلطتها جاهليا كافرا. فلو خُير شاب فى مقتبل العمر، طاهر

مثالى يتوق إلى حلم حياته، مجتمع شرعى طاهر ويريد الاختيار بين الحاكمية للملك وللأمير أو الحاكمية للضابط والجندى من ناحية وبين الحاكمية لله من ناحية أخرى فلا مجال للتردد فى اختيار الحاكمية لله. فالله لا يوَرث ولا يُورث، ولا يزور الانتخابات، ولا يجرى الانقلابات، ولا يضطهد المعارضين، وهو الحاكم العدل الذى لا يظلم.

ولو سئلت الجماعات: عرفنا الجانب السلبى الهادم فى الحاكمية لله وإنها ضد حاكمية البشر عن حق فماذا يعنى الشعار إيجابا مادام الله لا يحكم مباشرة؟ وهنا يستعصى الجواب. فقوة الشعار فى سلبه. وقد لا يكون هناك بناء بديل. إيجابه فى سلبه وليس فى إيجاب مستقل عن السلب، ومن هنا غاب المضمونان الاجتماعى والسياسى للشعار لأن الجماعات بعيدة عن السلطة ولم تمارسها بعد فلم تطرح بعد الجانب الإيجابى للشعار. ما شكل الدولة؟ ما نظامها الاقتصادى؟ ما سياستها فى الأجور؟ ما رؤيتها لملكية الأرض والمصنع؟ وما هى علاقاتها الدولية؟ ماذا تفعل الجماعات اليوم لو استلمت السلطة اليوم بانقلاب كما حدث فى السودان أو بثورة كما حدث فى إيران أو بانتخاب حر كما حدث فى الجزائر قبل انقلاب الجيش على نتائج صناديق الاقتراع، كيف تدير شئون الدولة؟ ماذا تفعل بالسلطة؟ مبايعة سقيفة بنى ساعدة، البيعة الخاصة ثم البيعة العامة كما حدث فى بيعة أبى بكر بعد وفاة الرسول عهد الخليفة لخليفة كما حدث فى عهد أبى بكر لعمر؟ حصر الخلافة فى ستة ثم تنازل اثنان ليختبرا الأربعة، ويختار أصلحهم بناء على سؤال وجواب كما حدث لعثمان؟ دفاع عن شرعية وقت الفتنة ضد منطق القوة كما حدث لعلى؟ أم إبداع جديد بناء على ظروف العصر بعد أربعة عشر قرنا وفى ظروف حضارية وتعددية منذ مائتى عام بعد تداخل حضارة أخرى بأنظمة حكم أخرى ديموقراطية أم شمولية؟ صحيح أن "الحاكمية تتحدى" ولكن هذا أيضا هو "تحدى الحاكمية".

ثالثا: تحليل شعار "تطبيق الشريعة الإسلامية".

وشعار "تطبيق الشريعة الإسلامية" مثل شعار "الحاكمية لله" شعار هجومى كذلك ضد القوانين القائمة التى تتغير كل يوم حتى لم يعد يعرف المواطن أى

قانون يطيع؟ يخضع القانون للقوى السياسية واتجاهاتها وللطبقات الاجتماعية وسيطرتها ولجماعات الضغط ولمصالح الفئات والأفراد.

وعلى فرض التسليم بهذا القانون فإنه لا يطبق إلا على الضعفاء أما الأقوياء فيتجاوزون القانون ويتعاملون بالصفقات والأرباح وتبادل المنافع. يُفرغ القانون من مضمونه الزائف لوضع حقيقى يتلاءم مع مصالح الناس. ويستفيد الموظف الذى يطبق القانون لصالح المواطن بالرشوة، ويستفيد المواطن بنيل حقه بعد طول عذاب.

تربت عند الناس ملكة عصيان القوانين وعن حق لأنها لا تعبر عن مصالحهم. ونشأ القانون الموازى الذى يخضع للعادات والأعراف، القانون الشعبى القبلى، وتحول المجتمع إلى قبائل يفض المشايخ نزاعات أفرادها بالقضاء الشعبى. والقانون الموازى والاقتصاد الموازى والسياسة الموازية أصبحت تكون الدولة الموازية التى يدين لها المواطن بالولاء ، الدولة المضادة فى مقابل الدولة القائمة التى لا يشعر المواطن أمامها بالانتماء ولا يدين لها بالولاء. هى دولة الشيطان أو الطاغوت، دولة الكفر والفسوق والعصيان، دولة فرعون وعاد وثمود. فتُحرق المخازن والمتاحف بعد سرقتها ونهبها ويتحول المال العام إلى مال خاص، وتصبح الدولة مالا مستباحا ودما مسفوحا حتى تقع البقرة الحلوب ويتم تقسيم لحومها وشحومها للمستحقين العاملين عليها.

وطالت الرشاوى رجال القضاء وغالى المحامون فى الأجور ووقف الناس طويلا أمام المحاكم وفى ساحات القضاء انتظارا لسنوات العذاب، النفقة للرضيع، والمعاش للأرمل، والميراث للمستحق، والأرض للفلاح، والمنزل للساكن. وقبل ذلك كان العذاب فى أقسام الشرطة ومع المحققين، الدولة هى الخصم والحكم، الداخل فيها مفقود والخارج منها مولود.

ويضاف إلى القانون الصورى البيروقراطية فى جهاز الدولة منذ الكاتب المصرى القديم حتى أرشيف القلعة وديوان الموظفين وإدارة المعاشات كثرت

الإمضاءات والأوراق والطلبات لا لشيء سوى تضخم جهاز الدولة وعلاقة المأمور بالآمر والموظف بالرئيس. وتاه المواطن فى جهاز الدولة، وصاغ قانونه الخاص وعرف سبيله لقضاء الحاجات بالمعارف والرشاوى ونظام القرابة والجيرة وبما تبقى من شهامة ابن البلد.

وفى هذه الحالة يكون "تطبيق الشريعة الإسلامية" أفضل وأعدل وأحق للناس فهى شريعة فورية تنبع من إيمان الناس وشريعة عدل فالله لا يظلم أحدا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وشريعة ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والأحوال. "تطبيق الشريعة الإسلامية" إذن كشعار يعبر سلبا عن مطلب فعلى، هو تحرير الناس من ظلم القوانين الوضعية التى وضعها الناس توقا إلى قانون عادل يحقق لهم مصالحهم. هو نداء للرفض ومقاومة بالسلب، وتطهير للنفس من ظلم القوانين وطلب للخلاص. ولا يعلم المواطن أن الشريعة الإسلامية هى أولى بلفظ "الوضع" كما بين الشاطبى فى عرضه لأحكام الوضع فى باب الأحكام فى "الموافقات فى أصول الشريعة"، تقوم على تحليل الحكم فى العالم، السبب والشرط والمانع والعزيمة والرخصة، والصحة والبطلان، الشريعة الإسلامية موضوعة فى العالم ومبنية فيه بناء على العلل المادية وشروطها وموانعها وقدرات الإنسان وحسن نياته. فإذا وصفنا القانون المدنى بانه قانون وضعى أعطيناه أكثر مما يستحق لأنه لا يقوم على وضع بل يعبر عن هوى أو مصلحة للفرد أو جماعات للضغط أو للطبقات الاجتماعية. وإذا وصفنا الشريعة الإسلامية بأنها إلهية أى مجرد عن الإرادة الإلهية المتعالية أعطيناها أقل مما تستحق وصورنا الله وكأنه حاكم مطلق صاحب هوى لا تقوم شرعيته على وضع مستقل فى العالم وتحقق مصالح الناس.

وقد يعنى الشعار إيجابا كما هو واضح فى السودان وفى شبه الجزيرة العربية وفى تصور الجماعات الإسلامية خارج الحكم تطبيق الحدود والعقوبات، قطع اليد والرجم والجلد وهى قوانين للردع. وهذا يعبر عن نفسية المضطهد المقموع الذى يوجه الشريعة ضد القامعين من ناحية وضد التسيب الاجتماعى والانهيار

السياسى من ناحية أخرى. الشريعة هنا وسيلة للضبط الاجتماعى وليس للحراك الاجتماعى. وتقوم كل من الدولة والجماعات بالمزايدة على بعضها البعض فى تطبيق الحدود. فالغاية واحدة الضبط الاجتماعى والسيطرة السياسية والتخوين والردع بالقانون. ومازال يغيب عن كليهما معنى الشعار إيجابا. إيجاب الإيجاب وهو إعطاء الناس حقوقهم قبل مطالبتهم بواجباتهم. فللمواطن حق العمل والكسب والتأمين ضد البطالة والمسكن والمدرسة والمستشفى ضد العراء والجهل والمرض قبل أن تُقطع يد السارق. ومن هو السارق: من يأخذ حافظة النقود من جاره فى المواصلات العامة أو من يستولى على الملايين من عائدات النفط؟ لذلك وضع الفقهاء حد أدنى للسرقة. وللشباب حق الزواج المبكر والسكن والمهر والأثاث والقضاء على الإثارات الجنسية من الإعلانات فى أجهزة الإعلام قبل الرجم والجلد. إذا أخذ المواطن حقوقه طالبناه بواجباته. ومن هو الزانى؟ من لا يجد نكاحا حتى يغنيه الله من فضله أم تجار الرقيق الأبيض من الملوك والأمراء الذين مازالوا يعيشون فى عصر الجوارى والإماء وما ملكت الإيمان؟

رابعا: تحليل شعار "الإسلام هو الحل" أو "الإسلام هو البديل".

كما يعنى شعار "الإسلام هو الحل" و"الإسلام هو البديل" تعثر الأيديولوجيات العلمانية للتحديث التى تم تجريبها فى المجتمعات الإسلامية منذ فجر النهضة العربية الحديثة.

فقد تم تجريب الليبرالية قبل الثورات العربية الأخيرة بعد صلتنا بالغرب، واعتبار الغرب نمطا للتحديث فى فكرنا الحديث عند كل تياراته الإصلاحية عند الأفغانى، والليبرالية عند الطهطاوى، والعلمية العلمانية عند شبلى شميل. وبالرغم من إنجازاتهما فيما يتعلق بتجربة الفكر وحرية الصحافة والنظم البرلمانية والتعددية الحزبية والدستور والتعليم وإنشاء الجامعات والحركة الوطنية وبدايات التصنيع إلا أنه قد تم نقدها وهدمها والقضاء عليها بعد الثورات العربية الأخيرة ووصفها بأنها إقطاع ورأسمالية وفساد وتغريب وفشل فى حل القضية الوطنية، الاستقلال

ووحدة وادى النيل. ومازلنا نعانى حتى الآن من تدمير النفس، غياب الحريات العامة والديموقراطية ونتوق إلى فجر النهضة العربية الحديثة وعصر التنوير الأول بما فيه من عيوب فقد بدت الآن مكاسبها أكثر من مخاسرها، وإيجابياتها أكثر من سلبياتها.

ثم جاءت الثورات العربية فى الخمسينات والستينات على أنها البديل لتضع مشروعا قوميا جديدا تشكل عاما وراء عام بناء على تجارب النضال الوطنى وعبر مساره خلال أربعة عقود من الزمان: بناء المجتمع الاشتراكى، التصنيع، حقوق العمال، الإصلاح الزراعى، مجانية التعليم، القطاع العام، التخطيط الاقتصادى، تحالف قوى الشعب العامل، ٥٠٪ من العمال والفلاحين فى مجلس الشعب، القومية العربية، عدم الانحياز، باندونج، الحياد الإيجابى، حركة تضامن الشعوب الآسيوية والأفريقية، مقاومة الصهيونية والاستعمار والذى يعرف باسم الناصرية، وبعد اختفاء القيادة الوطنية وتبديلها بقيادة أخرى فى السبعينات والثمانينات انقلب المشروع القومى رأسا على عقب بالرغم من حرب أكتوبر ١٩٧٣ وتم تدميره كلية واتهامه بأنه كان شيوعية وإلحادا وانغلاقا وتبعية للاتحاد السوفيتى ونظاما شموليا ديكتاتوريا. وتحول إلى ثورة مضادة من داخل النظام نفسه وبنفس القيادات إلى تحالف مع الاستعمار واعتراف بالصهيونية، وتصفية للقطاع العام، وتخل عن الإصلاح الزراعى، وانتشار التعليم الخاص، وتأسيس الجامعات الخاصة. فالرأسمالية لم تعد جريمة وانقلب الشعار من "ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعمار" إلى فيلا وعربة لكل مواطن وانتشرت البنوك الأجنبية تأخذ من المدخرات الوطنية أكثر مما تعطى. وفُتح باب الاستيراد باسم الانفتاح، وعمت البضائع الاستهلاكية وقل الإنتاج. وانعزلت مصر عن العرب وخرجت عن سياستها الوطنية الثابتة. وسلمت قيادتها إلى إسرائيل الكبرى وأمريكا، وخرجت من العرب مع معادلة النظام العالمى الجديد.

ثم اختلف الرفاق فى اليمن الجنوبى، واقتتلوا فى عدن باسم الماركسية التى تحطمت على حدود القبلية. ودخلت فى حلف مع حزب البعث فى سوريا والعراق،

فبررت النظم التسلطية وتخلت عن مبادئها الماركسية لحساب الحزب الحاكم. وأصبح رجالها هم النخبة الحاكمة يتمتعون بمزاياها لا فرق بين يسار ويمين، بين ماركسية ورأسمالية. وانطوى البعض تحت كنف الاتحاد السوفيتي يأتمر بأمره، وأصبح جزء من الشيوعية الدولية، ويُطرح الكوسموبوليتانية ويُنسى الطرح الوطني حتى بدو وكأنهم تبع للغرب الثقافي باسم الشرق الشيوعي. عادوا الثقافة الوطنية، وقلدوا التجربة الأوروبية وكأننا ألمانيا وانجلترا وفرنسا إبان الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، الدين أفيون الشعب وليس صرخة للمضطهدين، الدفاع عن حقوق العمال مع أن الأغلبية لدينا فلاحون. السلوك الشخصي للرفاق معاد للشريعة في مجتمع مازالت القدوة الحسنة للقادة هي المدخل لقلوب الناس وحركة الجماهير. وبعد انهيار النظم الشيوعية في أوروبا الشرقية ثم في الاتحاد السوفيتي نفسه، انهار المركز فضاقت الأطراف. انهارت النظم الشمولية والفلسفات المادية الداروينية وإن بقت الاشتراكية كمثل أعلى للشعوب. فشلت الوسائل وبقيت الغايات. وزادت شماتة الناس في الشيوعية والاشتراكية وحجة الواقع في النهاية أبلغ من حجة الفكر، فالعمل أصدق دليل على النظر.

وقامت نظم رجعية في شبه الجزيرة العربية، وسطها وأطرافها باسم الإسلام، عقائد وشعائر وطقوس وعقوبات وحدود، الإسلام وسيلة للضبط الاجتماعي من أجل التغطية على نهب الثروات الطبيعية والاستيلاء على عائدات النفط، والتبعية للغرب لدرجة استدعاء قوات التحالف لحل الخلافات العربية وتدمير العراق بالسلاح بحجة تحرير الكويت، وإفساد الحكام باسم العائلات الملكية، ومآسيهم في تبديد الثروات والانحلال الجنسي. نظم العصور الوسطى مازالت تحكم في العصور الحديثة، ولم تجد بعض الجماعات الإسلامية بديلا من التعاون مع هذا الإسلام المحافظ نظرا للرصيد التاريخي المشترك بينها. ولقد عاش بعض الإخوان في عصر الاضطهاد في مصر في شبه الجزيرة العربية، وكونوا الثروات هناك في بلاد النفط وأصبحوا حلقة الوصل بين السعودية والجماعات الإسلامية.

بم يؤمن الشباب؟ وبأى من التجارب الأربعة تؤمن الناس فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة: الليبرالية أو القومية أو الماركسية أو الإسلام الرجعى المحافظ المتعاون مع الاستعمار والذى يُعد نفسه للتجارة مع الصهيونية فى المحادثات المتعددة الأطراف؟ لقد ألغى بعضها بعضا بمنطق الفرقة الناجية. وبنفس منطق الاستبعاد وتقدم الجماعة الإسلامية نفسها الآن على أنها الحل أو البديل عن الأيديولوجيات العلمانية للتحديث وعن الإسلام "السعودى" وإن كان هواها مع النظم المحافظة فى شبه الجزيرة العربية ليس فقط لاشتراكهما فى رصيد المحافظة التاريخية بل فى المصالح المشتركة، القضاء على ما تبقى من الأيديولوجيات العلمانية للتحديث.

خامسا: انهيار المشروع القومى العربى الحديث.

ومنذ أكثر من مائتى عام تكون المشروع القومى العربى الحديث وتلاقت عليه التيارات الفكرية الرئيسية الثلاثة منذ فجر النهضة العربية: التيار الإصلاحى والتيار الليبرالى والتيار العلمانى. ويتكون هذا المشروع من أهداف سبعة:

١- تحرير الأرض من الاحتلال والغزو ومقاومة الاستعمار والصهيونية كما حاول الأفغانى.

٢- تحرير المواطن من القهر والاستبداد كما عرض الكواكبى فى "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد".

٣- العدالة الاجتماعية وإعادة توزيع الدخل بما يحقق أكبر قدر ممكن من المساواة بين الأغنياء والفقراء كما بين سيد قطب فى "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" و"معركة الإسلام والرأسمالية".

٤- وحدة الأمة ضد التجزئة والقبلية والعرقية من أجل الوحدة العربية كما هو الحال عند القوميين أو الوحدة الإسلامية كما ينادى بها الإسلاميون.

٥- إثبات الهوية ضد التغريب والتبعية، وضع الأنا فى مقابل الآخر كما هو الحال منذ "تخليص الإبريز" للطهطاوى حتى "علم الاستغراب".

٦- التنمية المستقلة والاعتماد على الذات والسيطرة على قوانين الطبيعة واستثمار الموارد الطبيعية كما بان ذلك فى التيار العلمى العلمانى منذ شبلى شميل فى "فلسفة النشوة والارتقاء" حتى "التطور اللامتكافئ" و"فك الارتباط" لسمير أمين.

٧- حشد الجماهير وتجنيد الناس حتى يتحول الكم إلى كيف ضد اللامبالاة والحياد والفتور كما عرض الكواكبى فى "أم القرى". وبعد مائتى عام من تكوين المشروع القومى الحديث انهار فى جيلنا، فبالنسبة إلى تحرير الأرض أُحتلت مزيد من الأراضى، فلسطين كلها، وأجزاء من سوريا ولبنان. وإسرائيل الكبرى على الأبواب بعد الهجرات السوفيتية الأخيرة والاستيلاء على مصادر المياه وتهجير الفلسطينيين. ثم غزو جنوب لبنان وحصار بيروت وقمع الانتفاضة واغتيال العلماء وحرق منبر المسجد الأقصى واحتلت القدس وحرمت الصلاة فى المسجد الأقصى مما أثار الجماعة الإسلامية لهتاف: "من سيعيد القدس سوانا"، "إن الأقصى يناديا"، وضرب المفاعل النووى فى العراق، وضُربت المقاومة الفلسطينية فى تونس، واغتيل أبو جهاد وأصبحت إسرائيل كالعصى الغليظة تعيد العرب إلى بيت الطاعة!

وبالنسبة إلى تحرير المواطن زاد القهر، وامتلأت السجون، وغصت المعتقلات بخصوم النظم السياسية فى كل البلدان العربية والإسلامية، وانتهكت حقوق الإنسان، وساد الرأى الواحد عقيدة الفرقة الناجية، سياسات الحزب الحاكم. وضعفت المعارضة، وسُنت القوانين الاستثنائية المكبلة للحريات، القوانين السيئة السمعة، قوانين الطوارئ والاشتباه والعيب، وشُكلت المحاكم العسكرية، وأتت لجان الأمم المتحدة لفحص انتهاكات حقوق الإنسان فى المجتمعات العربية فأتينا فى الصف الأول. ولم تجد الجمعيات العربية أو القطرية أى مقر لها داخل الوطن العربى. ومازالت غير شرعية مهددة بالحل.

وبالنسبة إلى الفقر والغنى ازداد فقر الفقراء وزاد غنى الأغنياء، وعظمت المسافة بين الأغنياء والفقراء، فأغنى أغنياء الأمة السلاطين والأمراء والملوك منا وأفقر فقراء الأمة الذين يموتون جوعا وقحطا منا أيضا. ساء توزيع الدخل بين من

يملكون ولا يعملون وبين من يعملون ولا يملكون. عم الظلم الاجتماعى وانتشر سكان المقابر وساد الفقر والضنك ونام الناس على الأرصفة وافترشوا العراء وخرجت الجماعات الإسلامية من أفقر الأحياء، إمبابة والزاوية الحمراء والوراق وزينهم، تجد الغنى فى ملك الدنيا والآخرة معا والثورة على من يمتلكون حطام الدنيا. وظهرت صورة العربى القبيح فى لندن الذى يشترى أدوارا بأكملها من المتاجر الكبرى يوم الأحد بأسعار مضاعفة ودون أن يرى البضائع إلا بعد شحنها فى قصوره فى قلب الصحراء.

وفيما يتعلق بوحدة الأمة تفرقت الأمة شيعا وأحزابا. واشتدت هذه النزاعات الطائفية القبلية والنعرات القبلية والعشائرية، ونشبت الحروب الأهلية، وسفك دماء بعضهم البعض، وتنازعوا على الحدود وغزوا بعضهم البعض، واستعانوا بالأجنبى على بعضهم البعض يزداد فيهم تقتيلا، لا فرق بين غاصب ومغتصب. وانتشرت البحوث حول الأقليات فى العالم العربى. وشككت الدول القطرية فى القومية العربية. عاش الأمير وعاشت الدولة القطرية، وسقطت القومية العربية على أسنة الرماح. قطر يغزو قطرا، وقطر يستدعى قوات التحالف الغربى ضد قطر، تتحول المنطقة كلها إلى دولة طائفية، شيعة وسنة ودروز، إسلامية وقبطية، وإلى نعرات عرقية، عرب وعجم وبربر، حتى تصبح إسرائيل هى الدول الطائفية العرقية الكبرى، الدولة اليهودية فى المنطقة فترث القومية العربية، وتتم المقاطعات بين الأقطار العربية، ويُسحب السفراء، وتشتد الخصومات وحرب الإذاعات، وتكثر التصريحات على موائد الأجنبى لنقد العرب والمسلمين المخالفين فى الرأى استجداء للمعونات واستعدادا لتحالف غربى جديد ضد الذين لا يسايرون النظام العالمى الجديد والسوق الشرق أوسطية، ومركزها إسرائيل وأمريكا ومصر وتركيا، أصبح الصديق عدوا والعدو صديقا. وأصبحنا أشداء بيننا رحماء على الكفار!

وفيما يتعلق بإثبات الهوية ضاعت الهوية، وعم التخريب فى أساليب الحياة فى الفكر والعمل، فى الثقافة والسلوك وأصبحت أسامينا "محمد موتورز"، "منصور

شيفورليه". ونذهب إلى محلات "تيك أواى"، "كنتاكى فراى تشيكن". ونشأ الإسلام التجارى فى محلات "حجابكو"، "إسلامكو"، ومحلات التنظيف "تنظيفكو" وبدلا من "شروق من الغرب" نشأ رد الفعل الطبيعى "ظلام من الغرب".

وفيما يتعلق بالتنمية المستقلة ازدادت تبعية الأمة على الخارج فى غذائها وكسائها وسلاحها وثقافتها، ٧٠٪ من غذاء مصر يأتى من الخارج. ثم ارتهان الإرادة الوطنية بالقمح. وأشهر سلاح التجويع. وتم الاعتماد على عدو الأمس لحل القضايا الوطنية. وقيل أن ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى أيدى الولايات المتحدة الأمريكية، وضرورة تحييد العدو. ولتحرير الكويت تم تدمير العراق، ودخل أكثر من نصف العرب مع قوات التحالف الغربى لقتل الأخ لأخيه. وتتم المباحثات فى مدريد عام سقوط غرناطة ثم فى واشنطون مركز النظام العالمى الجديد الذى لا مكان للعرب والمسلمين فيه حتى بلا طاقة أو ثروة أو أسواق أو عمالة ماداموا فقدوا دورهم فى التاريخ.

وفيما يتعلق بحشد الجماهير تحولت الجماهير إلى السلبية المطلقة. ولم تعد تهتم بشىء مهما حدث لها. تعودت على الإهانة. تبحث عن لقمة العيش، وتجرى وراء الخبز دون كرامة. ولم تستطع هبات الخبز فى مصر والمغرب وتونس والجزائر والأردن أن تتحول إلى ثورات شعبية قادرة على تغيير نظام الحكم. ولو دخلت إسرائيل عمان ودمشق والقاهرة لما تحرك أحد. ولو استولت على الحرم المكى كما استولت على المسجد الأقصى لما اعترض أحد. وهنا تبدو الجماعة الإسلامية بارقة أمل بقدرتها على حشد الناس، والنزول فى الشارع وتحريك الجامعات وتثوير المساجد، وتكوين الخلايا النشطة للاعتراض والغضب والتمرد والثورة على الأوضاع.

سادسا: نقد الخطاب الدينى.

وخطاب الجماعات الإسلامية رد فعل على الخطاب الدينى المعاصر، السائد فى مؤسسات الدولة وهو الخطاب الدينى الرسمى للمؤسسة الدينية الرسمية. الأزهر، مجمع البحوث الإسلامية، مشيخة الطرق الصوفية، دار الإفتاء المصرية

والذى يصوغه فقهاء السلطان وفقهاء الحيض والنفاس. وهو الخطاب الرسمى أيضا فى أجهزة الإعلام الذى هو أيضا تحت سيطرة الدولة. المؤسسة الدينية وأجهزة الإعلام كلاهما جهازان لبسط سلطان الدولة. هو خطاب رسمى، يدعو إلى سياسات الدولة ولا يتعرض لما تعم به البلوى من قضايا الحرب والسلام، والغنى والفقر، والحرية والقهر، والوحدة والتجزئة، والاستقلال والتبعية، والهوية والتغريب، وفتور الناس وثورتهم تسوده العقائد والشعائر والتصوف كما يبدو فى "حديث الروح" وفى أحاديث الجمعة. لا يمس حياة الناس بدعوى لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة، وهو فى نفس الوقت خطاب سياسى مقنع لأنه يبعد الدين عن الحياة العامة ويجعله قاصرا على علاقة الإنسان بينه وبين ربه وكأن الإسلام بوذية أو هندوكية أو مسيحية. "حديث الروح" كل يوم قبل التاسعة مساء إلا خمس دقائق قبل نشرة الأخبار الرئيسية فى البلاد يُغرق المواطن فى عالم من الروحانيات ثم يصطدم بعد ذلك بمذابح المسلمين فى البوسنة والهرسك وقتل الإسرائيليين لأطفال الانتفاضة، وكأن "حديث الروح" حقنة مخدر القصد منها تغييب المواطن عن وعيه السياسى والاجتماعى والوطنى. وتفسير القرآن كل أسبوع بعد صلاة الجمعة تفسيرا لغويا بلاغيا تمثيليا بحيث يبدو الله فى حديثه حكيما مثل ابن البلد يجعل الوحى مجرد لعبة لغوية ومعركة كلامية و"حداقة" شعبية، ويبرر صاحبه غلاء الأسعار فى يناير ١٩٧٧ الذى كان سبب الهبة الشعبية بأنه مثل الدواء الأمر الضرورى لتصليح مسار الاقتصاد. ويسجد لله شكرا على هزيمة ١٩٦٧ مضحيا بالوطن من أجل النظام. ويدافع عن التدخل الأمريكى فى الخليج لتدمير العراق باسم تحرير الكويت. وآخر ينادى "أرحنا بها يا بوش". وثالث يبكى فى بغداد قبل الغزو العراقى للكويت ويدعو قائد مسيرة الأمة لتدمير إسرائيل كلها وليس فقط نصفها ثم يعود بعد الغزو إلى القاهرة سعوديا مدافعا عن الغزو الأمريكى. ورابع يبكى على حال الأمة فى بغداد قبل الغزو العراقى للكويت ويدعو الشعوب الإسلامية للتضامن مع بغداد ضد واشنطن وفى القاهرة يدعو قوات التحالف الغربى إلى تدمير العراق الظالم حاكمه بعد أن كان قائد المسيرة المظفر. أما خطب الجمعة فى المساجد فلا

تقول شيئا، وتدعوا إلى أركان الإسلام الخمسة وتعلم الناس نواقض الوضوء أو تخبرهم بنعيم الجنة وبعذاب النار، والناس يسرحون بعقولهم فى هموم حياتهم اليومية، فى مآسيهم وضنكهم وفى حاضرهم ومستقبلهم. لذلك حرمت الجماعات الإسلامية الصلاة فى مساجد الدولة لنفاق الأئمة، وتبعيتهم للدولة وأقامت مساجدها الأهلية لتعلن فيها كلمة الحق فتحاصرها الجند، وينهال الرصاص على المصلين. ويطلب شكرى مصطفى أثناء محاكمته أن يحاور رجال الأزهر الشريف فيرفضون جميعا خوفا من رؤيتهم لأنفسهم باعتبارهم فقهاء السلطان وعلماء النخاسة وحلق عانة الميت فى "نور على نور".

والخطاب الثانى هو الخطاب العلمانى، الليبرالى أو القومى أو الماركسى، وهى الأنظمة التى حكمت ومازالت تحكم الوطن العربى. هو خطاب غربى فى مجمله، تابع للثقافة الغربية. يُعادى الخطاب الإسلامى ويضع الوافد بديلا عن الموروث، ويجعل ثقافة الآخر ضد ثقافة الأنا. يأخذ بالنموذج الغربى نمطا للتحديث، وينكر خصوصية الشعوب والمجتمعات. هو خطاب مقلد للغرب وناقل عنه وتتهم الخطاب السلفى المضاد بالتقليد والنقل من القدماء، تقليدا بتقليد، ونقلا بنقل، ولا فضل لأحد الفريقين على الآخر. يقف من التراث موقف الرفض، ويأخذ نموذج القطيعة بين القديم والجديد، فلكل عصر ثقافته. ولما كانت ثقافة العصر هى الثقافة العقلانية العلمية الإنسانية كانت ثقافة كل الشعوب الراغبة فى التقدم والنهضة. وكل محاولة لنقل القديم إلى الجديد، وإعادة بناء القديم طبقا لحاجات العصر هى محاولات توفيقية تلفيقية بين ضدين، تخشى الحسم والاختيار بين بلدين متناقضتين لا يلتقيان، لا يفرق بين الخطاب الإسلامى المحافظ والخطاب الإسلامى المستنير.

كلاهما خطاب واحد. إنما توزيع الأدوار بين الاستراتيجية والتكتيك. الخطاب السلفى استراتيجية والخطاب الإسلامى المستنير تكتيك. ولا ضير أن تفسح الدولة أجهزة الإعلام فيها إلى الخطاب العلمانى ليهاجم الخطاب السلفى، استعمالا لفريق

ضد فريق مادامت المصالح الآنية واحدة. وكان من الطبيعى أن يرفض الخطاب السلفى الخطاب العلمانى. يتهم الليبرالى بالعمالة للغرب، والقومى بالعنصرية والعرقية والماركسية بالمادية والإلحاد.

والخطاب الثالث هو خطاب الأحزاب الحاكمة، الخطاب السياسى الذى يقوم على إخفاء الحقائق والتمويه على الناس والكذب الصريح. هو خطاب مناسبات، تابع لإرادة الحاكم. وقد يتغير تغيرا جذريا، ويتحول مائة وثمانين درجة بين يوم وليلة مع إيران والسعودية أو أمريكا وإسرائيل. يحدد معالمه فرد واحد هو الحاكم، ورؤية واحدة هى رؤية النظام السياسى. هو خطاب كاذب لا يسمعه أحد لأن الناس تعرف الحقائق من محطات الإذاعات الأجنبية حتى دان ولاؤها الإعلامى للخارج، وانفصل عن الداخل الذى تراقبه أمريكا والسعودية، أمريكا فى السياسة، والسعودية فى الدين، دفاعا عن السلطتين القائمتين السياسية. وحتى يصبح خطابا محبوبا للجماهير يتحول إلى خطاب إعلامى عن طريق الإعلانات التى تركز على الجنس والخلاعة والرقص بما فى ذلك الإعلان عن المبيدات الحشرية والسموم القاتلة! وذاعت شهرة الإعلانات فى الخطاب السياسى الرسمى، وراجت بضاعة فتيات الإعلانات عند الزوار العرب. تعقبها المسلسلات التليفزيونية التى تربط المواطن بالشهور أمام الشاشات الصغيرة، مصرية أو أمريكية فيجد المواطن فى المسلسل المصرى تفريحا عن مآسيه، وفى المسلسل الأمريكى تسلية له وانبهارا بالتحرر الغربى وبحياة الغربيين تعويضا عن كتبه وحرمانه ومفاهيم الحلال والحرام.

الخطاب السياسى للحزب الحاكم خطاب فارغ من أى مضمون، إنشائى يعتمد على البلاغة وعلى أن اللغة نسق مستقل بذاته وليست أداة للتعبير عن المعانى، خطاب مناسبات قومية ثورة ٢٣ يوليو، ٦ أكتوبر... الخ، يُمجد فى إنجازات الحزب مدعما بالإحصائيات الكاذبة أو المقروءة قراءة واحدة. ولا يكاد يذكر شيئا عن مأساة الحاضر، يعد بتجاوز عنق الزجاجة عما قريب. ويبدو أن عنق الزجاجة طويل للغاية لم نتجاوزه بعد منذ عقدين من الزمان لا يستمع إليه أحد إلا رجالات

الحزب الحاكم. ولا يؤثر فى أحد، حاكما أو محكوما. ولا ينطوى على أحد عدوا أو صديقا. هو الخطاب الذى يدخل أذن ويخرج من الأذن الأخرى، كلام الجرائد، والاستهلاك المحلى ورقة التوت بين الحاكم والمحكوم.

سابعا: "الحافظة" التاريخية.

وينحو الخطاب السلفى بطبيعة الحال نحو السلفية والمحافظة باعتبارها تيارا تاريخيا نشأ منذ ألف عام منذ نقد الغزالى العلوم العقلية وقضائه على التعددية، وتجريحه لجميع قوى المعارضة، المعتزلة والشيعة والخوارج، دفاعا عن الدولة القوية، دولة نظام الملك. فأعطى الحاكم أيديولوجية السلطة، والعقيدة الأشعرية. وأعطى الجماهير أيديولوجية الطاعة، التصوف. الحاكم مثل الله، عالم، قادر، حى، سميع، بصير، متكلم، مريد، وللشعب الصبر والتوكل والرضا والقناعة والزهد والخوف والخشية والرهبة.

ثم حاول الإصلاح الدينى منذ الأفغانى إحياء العقائد فى قلوب الناس وتثوير الدين ونبذ القضاء والقدر واكتشاف قوانين التاريخ الإسلامى فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل. وبعد فشل الثورة العرابية فى ١٨٨٢ ارتد الإصلاح الدينى محافظا إلى النصف عند محمد عبده الذى آثر المصرية على الجامعة الإسلامية، والتدرج على الثورة، والتربية والتعليم على الانقلاب، وإصلاح اللغة العربية والمحاكم الشرعية على الاستيلاء على السلطة السياسة "لعن الله ساس ويسوس". ومع ذلك قامت ثورة ١٩١٩، وأعلن دستور ١٩٢٣ وقاد سعد زغلول تلميذ محمد عبده مسيرة النضال الوطنى. ولكن بعد نجاح الثورة الكمالية فى تركيا فى ١٩٢٣ ارتدت الحركة الإصلاحية من جديد إلى المحافظة نصفا آخر عند رشيد رضا. وبدأ الخطاب الإصلاحى سلفيا تمتد جذوره إلى محمد بن عبد الوهاب ومن ورائه ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ومن ورائهما أحمد بن حنبل. ثم حاول حسن البنا إحياء الخطاب الإصلاحى من جديد ورد الحياة له بإسلام وطنى بسيط يجمع بين النظر والعمل. الإسلام عقيدة وشريعة، مصحف وسيف فرسان بالنهار رهبان

بالليل. وحقق حلم الأفغانى فى تكوين حزب ثورى فى جماعة الإخوان المسلمين التى كانت تنافس الوفد والماركسيين فى الشعبى والتفاف الجماهير حولها وفى تمثيل الحركة الوطنية فى الأربعينات.

وبالرغم من مقتل حسن البنا فى فبراير ١٩٤٩ استطاع الإخوان أن يكونوا أحد الروافد الرئيسية لحركة الضباط الأحرار التى قامت بالثورة فى ١٩٥٢. وبعد دخول سيد قطب الجماعة ذاعت أفكار "العدالة الاجتماعية فى الإسلام"، "معركة الإسلام والرأسمالية"، "السلام العالمى والإسلام" كما كان يبشر بظهور يسار إسلامى جديد لم يظهر إلا بعد ذلك بربع قرن من الزمان فى ١٩٨٠. وبعد الصراع على السلطة بين الإخوان والثورة فى ١٩٥٤ خسر الإخوان، ودخلوا السجون والمعتقلات. فخرج فكر جديد يمثله "معالم فى الطريق" يقوم على تكفير المجتمع واستحالة المصالحة بين الله والطاغوت، بين الإيمان والكفر، بين الإسلام والجاهلية، بين الحق والباطل. ولا يمكن لطرف أن يبقى إلا بالقضاء على الطرف الآخر. ويقوم جيل قرآنى فريد تحت شعار "لا إله إلا الله" بتدمير النظم القائمة من الأساس حتى يبدأ النظام الإسلامى الجديد ليخلص العالم، ومازال "معالم فى الطريق" هو المولد الأول لفكر الجماعات لأنه مازال يعبر عن نفسية الجماعات المضطهدة.

وتتجلى الحافظة التاريخية فى الفكر الدينى فى الفكر الدينى الموروث الذى مازال يعطى القيمة للقمة على القاعدة، لله على العامل، وللراعى على الرعية، وللنص على الواقع. وللأصل على الفرع، وللرجل على المرأة فى ثنائية متصارعة متضادة فى محور رأسى يسيطر فيها الأعلى على الأدنى. وهو نفس البنية التى تقوم عليها الدولة، الحاكم والمحكوم. ومن هنا أتى الصراع بين قمتين، رئاسة الدولة ورئاسة الجماعات، رئيس الدولة وأمير الجماعة. ومازال القول المأثور عند كل من الفريقين يؤثر فى النفوس "إن الله يُزعن بالسلطان ما لا يُزعن بالقرآن". فلا يتغير شىء فى الواقع إن لم تتغير السلطة السياسية أولا. ومن هنا أتت الحاكمية لله، تطبيق الشريعة، تنفيذ الحدود. ولما كانت هذه الثنائية متضادة لا يمكن المصالحة بين

أحد طرفيها ظهر حول الكل ولا شيء، هدم طرف من أجل بناء الطرف الآخر. غاب الحوار، وساد التعصب، وسادت الحجة النقلية الحاسمة حجة السلطة وليست حجة العقل. وازدادت قيمة الشعائر والطقوس التى تعلن للناس فى الخارج عن وجود الشريعة، جهاز إعلام جديد ونقاط جذب للشباب من أجل المفاصلة مفاصلة المؤمن للكافر. فإن بدأ الاضطهاد، تتحول الحركة الإسلامية إلى حركة سرية لتناضل من تحت الأرض حتى تقضى على الدولة الظالمة وتقتلع الفساد فى الأرض من الجذور. ولا توجد الحافظة التاريخية فى الجماعات الإسلامية وحدها بل فى الدولة ذاتها وفى كل القوى المعارضة وفى بنية الحياة الاجتماعية والثقافية فالكل ينهل من موروث ثقافى واحد. الدولة أيضا هرمية فرعونية رئاسية كإمارة الجماعات، وأحزاب المعارضة أيضا رئاسية إمارية سلطوية تأتمر بأمر الضابط الحر أو الباشا أو الحرس القديم. الكل نصى، الدولة من خطب الرئيس وتوجهاته وأحزاب المعارضة من أقوال رؤساء الأحزاب ومذكراتهم والجماعة الإسلامية من الكتاب والسنة وأمراء الجماعة، الكل يبغى السلطة لأنه أحق بها من الآخر، الدولة والمعارضة والجماعات فكل فريق يعتبر نفسه الفرقة الناجية.

ثامنا: نفى الآخر وإثبات الأنا.

وتزداد عداوة الغرب للعرب والمسلمين ليست فقط من خلال استمرار تشويه صورتهم فى أجهزة الإعلام وفى كتابات المستشرقين وفى العلوم الاجتماعية خاصة الاجتماع والأنثروبولوجيا السياسية التى ورثت الاستشراق بل أيضا بالعدوان المباشر: تدمير العراق، حصار ليبيا، مذابح المسلمين فى البوسنة والهرسك، احتلال الصومال، حتى استولى الغرب على منابع النفط، مصادر الثروة العربية والتحكم فى أسعاره، وفرض ضريبة الكربون عليه التى تعادل سعره وحمايته للبيئة، وبيعه وهو مازال مخزونا فى الأرض رهينة فى أيدى الدول والشركات الأجنبية، ووضع عائدات النفط فى البنوك الأجنبية واستثمارها فى البلاد الأوروبية. وتدمير السلاح العربى فى حربى الخليج الأولى والثانية.

لقد اختفت المنظومة الاشتراكية القطب الثانى فى نظام العالم القديم. وورثة العرب والمسلمون يجد فيهم الغرب العدو الجديد، ويخطط لنظام شرق أوسطى جديد يكون العرب فيه القوم التبع. وتكون القيادة المحلية فيه لإسرائيل وتركيا، والقيادة العالمية للولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن تخلت مصر عن دورها القيادى فى المنطقة ولم يجد العرب إلا الاستسلام.

لقد ضلت النظم القومية طريقها بعد الغزو العراقى للكويت، ودخول سوريا فى محادثات السلام. واختفت الأحزاب الماركسية العربية باختفاء الاتحاد السوفيتى. وقضينا على الليبرالية بأنفسنا باسم القومية العربية ثم قضت هى على نفسها بمعاداتها للاشتراكية ودخولها فى الانفتاح الاقتصادى. لم تبق إلا الجماعات الإسلامية كحركات احتجاج مازالت ترفض وجود إسرائيل وتعادى الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وتقاوم صنوف القهر والعدوان وتستأنف المشروع القومى العربى الحديث، وتقيله من عثرته، فتنسب الناس إليها كطوق النجاح للحفاظ على ما تبقى من كرامة دافعت عنها الأجيال الماضية.

وفى نفس الوقت الذى يتم فيه رفض الآخر يتم أيضا إثبات الأنا. فبعد نجاح الثورة الإسلامية فى إيران فى فبراير ١٩٧٩ بالرغم مما حدث لها بعد ذلك من انفصال العلمانيين والمجاهدين عن مسيرة الثورة، ونجاح الثورة الأفغانية فى ١٩٩٢ بالرغم مما حدث لها من شقاق وتقاتل بين فصائل المقاومة بدا السلاح ناجحا فى الأرض، قادرا على قلب نظام الطغيان والقهر والتبعية للقرب مثل نظام الشاه، وقادرا على إسقاط نظام القهر والطغيان التابع للشرق مثل نظم داود وحفيظ الله ونجيب الله وكارمل. فقد أعطت هذه الانتصارات ثقة للحركة الإسلامية بنفسها بإمكانية النجاح فى طريق الكفاح المسلح ضد أنظمة القهر والعمالة.

وقد نجحت الحركة الإسلامية أيضا، بصرف النظر عن الاختلاف والاتفاق معها فكرا وممارسة فى السودان، بانقلاب عسكرى سيطر عليه الإسلاميون. ونجحت فى الجزائر بقبولها الاحتكام إلى صناديق الاقتراع وحصولها على أغلبية أصوات

الناخبين أولا انقلاب الدولة عليها بدعوى الحرص على الديموقراطية ضد أعدائها. وفى حالة انتخابات حرة فى تونس تأخذ الحركة الإسلامية، حزب النهضة ٧٠٪ من أصوات الناخبين، وفى مصر تأخذ ٤٠٪ فى مقابل ٣٠٪ للوفد، ٢٠٪ للناصريين، ١٠٪ للمستقلين، وفى الأردن، قبلت الحركة الإسلامية الدخول فى المسيرة الديموقراطية ولديها ثلث الأعضاء فى مجلس النواب. وانقسمت المؤسسة الدينية فى شبه الجزيرة العربية على نفسها بعد التدخل الأمريكى فى الخليج واستدعاء قوات التحالف الغربى وتدمير العراق باسم تحرير الكويت.

وقويت حركات شبه الجزيرة العربية، إسلامية أو علمانية تُعطى صورة لما يمكن أن يكون عليه نظام المستقبل. ويبزغ نظام المستقبل. ويبزغ الإسلام المستنير حثيثا فى مصر وتونس والأردن معلنا عن إمكانية إقامة الجسور بين الفريقين المتخاصمين، الإسلاميين والعلمانيين، وتكوين جبهة وطنية موحدة تحمل المشروع القومى العربى الإسلامى من جديد.

وانتشر الإسلام فى أوروبا وآسيا كما وكيفا حتى أصبح يشكل فى أوروبا الديانة الثانية بعد المسيحية، وفى أمريكا الديانة الثالثة بعد المسيحية واليهودية. وقامت الجمهوريات الإسلامية الجديدة فى أواسط آسيا تعلن عن قدوم الإسلام الآسيوى. وتدخل فى حلف واسع مع تركيا وإيران وأفغانستان وباكستان والحركات الإسلامية فى العالم العربى من خلال "العرب الأفغان" على الرغم من مقاومة الأنظمة فى العالم العربى لها وإيثارها التبعية لإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية.

إن الصحوة الإسلامية ظاهرة تاريخية بناء على قانون تاريخى. فقد بدأ الإسلام منذ أربعة عشر قرنا. وقام بحضارته فى عصره الذهبى فى القرون السبعة الأولى، وبلغت ذروتها فى القرن الرابع الهجرى عصر المتنبى والبيرونى. أبدعت فيها شتى العلوم العقلية والعقلية النقلية والنقلية التى تحن إليها الجماعات الإسلامية حاليا مثل كل حركة أصولية تعود إلى الوراء وترى تقدمها ونموذجها فى العودة إليه. وقد أرخ ابن خلدون لهذه الفترة فى مقدمته الشهيرة محاولا معرفة سبب تقدم

العرب وسبب انهيارهم فى نظرية الانتقال من البدو إلى الحضر وفقدان العصبية. وبالتالى لا سبيل إلى التقدم من جديد إلا بالعودة من الحضر إلى البداوة، عودا إلى الأصول وتقوم الجماعات الإسلامية بتحقيق هذا المطلب.

ثم تلت القرون السبعة الأولى قرون سبعة تالية، عصر الشروح والملخصات، لم تعد الحضارة تُبدع بالعقل بل تُدون بالذاكرة لحفظ التراث بعد هجمات الصليبيين من الغرب، والتتار والمغول من الشرق. وقامت مصر فى العصر المملوكى بهذا الحفظ فى الموسوعات الكبرى التى تقوم الجماعات بقراءتها، عصر ابن تيمية وابن القيم.

وفى آخر قرنين من هذه الفترة، بدأت الحركة الإصلاحية الحديثة تحاول تجديد الحضارة الإسلامية فى عصر ذهبى ثان لقرون سبعة جديدة قادمة، تعود إلى الأصول فيما سمى بالحركة السلفية المعاصرة منذ محمد بن عبد الوهاب. وبالرغم من "كبوة الإصلاح" جيلا وراء جيل منذ الأفغانى حتى الجماعات الإسلامية لظروف خاصة، فشل العرابيين فى ١٨٨٢، والثورة الكمالية فى تركيا، والصدام بين الإخوان والثورة فى ١٩٥٤ حتى أصبحت النهايات غير البدايات والنتائج غير المقدمات إلا أن قوة الحركة الإسلامية وشدتها يوما بعد يوم بحيث أصبحت المحاول الأول للأنظمة السياسية القائمة تجعلها قوة تاريخية.

فالإسلام قادم وليس غاربا على عكس حديث الغرباء المشهور "جاء الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء من أمتى". الإسلام منتصر وليس مهزوما، متقدم وليس متراجعا، فى هجوم وليس فى دفاع. وتلك روح مقدمة "الفريضة الغائبة" لفكر الجهاد.

تاسعا: العنف والعنف المضاد.

ليس العنف هو ما يبدو على السطح من المقهور إذا ما ألقى قنبلة أو أطلق رصاصة فهذا هو العنف المضاد. إنما العنف هو العنف الباطن من القاهر الذى يمارسه على الدوام حتى يفجر العنف المضاد. فالجماعة الإسلامية مطاردة مهمشة،

مطالبة من قوة الأمن وأجهزة الشرطة، مستجوبة، موضع سخرية منها فى لباسها وجلبابها وذقونها وسبحها وعلاقاتها الاجتماعية. وليس لها حق فى الاعتراض أو الرد فى جريدة يومية أو مجلة أسبوعية أو شهرية أو برنامج تلفزيونى أو إذاعى. والمساجد محاصرة، والأئمة مراقبون. هذا العنف اللامرئى هو سبب العنف المرئى. ليس العنف هو العنف العضلى، أو استعمال القوة المادية، ولكنه قد يكون العنف الاجتماعى الذى يقضى على حرية الاختيار وعلى الوجود الإنسانى ذاته. فالنظامان السياسى والاجتماعى مفروضان على الناس. لم يتم اختيارهما طوعا بالرغم من مظاهر الديموقراطية والانتخابات المزورة ودخول الدولة كطرف فيها ضد المعارضة لإنجاح الحزب الحاكم. النظام الاقتصادى لم يختره الناس، سياسة الأجور، الأسعار، إيجار المساكن، مصاريف المدارس، أعباء الحياة، كل ذلك مفروض قسرا، والنظام الإعلامى لم يختره الناس، يفرض عليهم نوع الأخبار والمواقف السياسية للدولة: الانفتاح الاقتصادى، معاداة السودان وإيران، مخاصمة الحركة الإسلامية، الدخول مع قوى التحالف الغربى ضد العراق، الموافقة على حصار ليبيا، الاستسلام لضغوط البنك الدولى. يشعر المواطن أنه لا حرية له فى اختيار النظام الذى يعيش فيه مقهور من الصباح حتى المساء. ولا تمتص غضبة أحزاب المعارضة الضعيفة التى نشأت بقرار من الدولة وتحت رعايتها ورقابتها. فلا يجد أمامه إلا الجماعات الإسلامية كقناة للاحتجاج، يجد حريته فيها، وصدقه مع النفس بانتسابه إليها، طموحه إلى الشهادة وإثبات الذات بعد أن همشه المجتمع وجعله مجرد معدة تستهلك وليس إرادة تختار.

ويتوجه العنف المضاد إلى رموز الدولة. فليس المقصود بالاغتيالات الأشخاص، فهم أبرياء، ولكن رموز الدولة الصورية: القبعة والنجمة والبذلة والمبنى والكنيسة من أجل القضاء على هيبتها موضوعيا، تفريق شحنة الغضب منها والحقد عليها من نفوس الجماعات ذاتيا. وتشمل رموز الدولة رئيس الدولة، رئيس مجلس الشعب، مدير الأمن، كبار المسئولين، رجال الشرطة أو المتعاونين معها من مفكرى السلطة وفقهاء السلطان. تهدف الجماعات إلى النيل من مواطن الضعف فى الدولة،

أقباط مصر، حتى تبدو الدولة عاجزة عن الدفاع عن مواطنيها. كما تهدف إلى ضرب السياحة حتى تنهار الدولة اقتصاديا. فدخل مصر من السياحة يكاد يقترب من دخلها من قناة السويس ومن حجم المساعدات الأمريكية لمصر. بعد جفاف تحويلات المصريين من الخارج بعد حرب الخليج.

من الطبيعى أن يظهر العنف المضاد فى سلوك الجماعات باعتبارها جماعات مهمشة مطاردة بالشرطة وأجهزة الأمن، مجرحة فى الصحف وأجهزة الإعلام. ولا وسيلة للدفاع عن أنفسها أو سماع أصواتها. ليست لها صحف أو مجلات. وليس لها برامجها فى أجهزة الإعلام. لا سبيل أمامها إلا المساجد المحاصرة المقتحمة والمداهمة بأجهزة الأمن التى تطلق النار على المصلين الآمنين كما حدث فى مسجد الرحمة فى أسوان.

عنف الجماعات إذن هو عنف مضاد. عنف فى مواجهة عنف، عنف المعارضة فى مواجهة عنف السلطة، عنف الأهالى فى مواجهة عنف الحكومة، فى مجتمع غاب عنه الحوار، وآثر مواجهة قضايا الفكر والسياسة والسلاح.

وهو عنف يظهر فى الأحياء الشعبية حيث يسود منطق الفتوة، منطق "اللص والكلاب"، منطق "العسكر والحرامية"، كما يبدو فى الصعيد حيث يسود الأخذ بالثأر، ومواجهة العائلة بالعائلة والقبيلة بالقبيلة لا دفن للجثث ولا عزاء فى الموتى من كلا الطرفين حتى يتم الأخذ بالثأر طبقا لتقاليد الصعيد. فالوطن هو الأسرة والقبيلة. وتتحول القضية العامة إلى قضية خاصة، دما بدم، وقتيلا بقتيل والكل ضحايا العنف والعنف المضاد، والكل شهداء الوطن.

عاشرا: الحوار الوطنى.

طالما أن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، الداخلية والخارجية على ما هى عليه سيظل تفريخ الجماعات الإسلامية فكرا وممارسة، فالجماعات مظاهر احتجاج اجتماعى ينتسب أعضاؤها إلى الطبقات الفقيرة فى الأحياء العشوائية من

القاهرة الهامشية والصعيد الثأرى. تلتحم بالشعب وتشارك فى حل مشاكله اليومية فى المساجد الكبرى التى تحولت إلى عيادات طبية وخدمات اجتماعية، الإبقاء على الأحياء ودفن الأموات. ولما توقف الحراك الاجتماعى، وأصبح التسليم بالأمر الواقع هو الحجة الدائمة من أجل الاستقرار وعدم هروب رؤوس الأموال الأجنبية فى عصر الانفتاح، تحولت طاقات المجتمع إما إلى الخارج فى الهجرة، هجرة العلماء إلى الغرب، وهجرة العمال إلى الخليج أو إلى ليبيا وإما إلى الداخل فى المخدرات أو الجماعات الإسلامية حتى يتسرب الحراك الاجتماعى إلى الداخل نظرا لسداد المنافذ الخارجية.

إن الجماعات الإسلامية كالطير الشارد، والأسد الجامح، والحصان الجانح، ولا سبيل إلى تهدئتها وترويضها إلا بغطاء الشرعية، وأن تعمل من المركز وليس من المحيط، ومن القلب وليس من الأطراف. صحيح أن الدستور لا يبيح إقامة أحزاب على أسس دينية ولكن ليس المطلوب حزبا بل جماعة أو هيئة مثل الشبان المسلمين، وكما كانت الإخوان المسلمون من قبل. وذلك يتطلب إلغاء قرار الحل الذى صدر ضد الجماعة فى ١٩٥٤، وإرجاع المركز العام فى الحلمية لهم الذى تحول إلى قسم الدرب الأحمر، مركزا لإيواء المجرمين والنشالين بعد أن كان مركزا للهداية والرشاد ومنبرا للحركة الوطنية المصرية. طالما رفض المجتمع الجماعات سترفض الجماعات المجتمع. وطالما أن الجماعات غير شرعية فإنها ستطعن فى شرعية المجتمع. لا حل لكسر هذه الدائرة المفرغة من التكفير والتخوين المتبادلين إلا بشرعية الجماعات كتنظيم. وأن تتحول من نفسية الجماعات السرية المغلقة والفقه المغلق إلى سلوك التنظيم العلنى الذى يحاور من منطق الشرعية، عنترة بن شداد فى حاجة إلى اعتراف شرعى ببنوته قبل أن ينطلق دفاعا عن الحمى فى حب عبلة!

وبالممارسة الطبيعية للسياسة من منطق الشرعية تتغير الجماعات فكرا وسلوكا، نظرا وعملا، عقيدة وشريعة، فبعد الاطمئنان إلى شرعيتها وتأمين ظهرها

من الغدر والاعتقال والحل تتوجه نحو التحديات الرئيسية للمجتمع وقضاياه المصيرية: تحرير الأرض، وحرية المواطن، والعدالة الاجتماعية، ووحدة الأمة، والدفاع عن الهوية، والتنمية المستقلة، وحشد الجماهير. ويختفى ما نُعيبه عليها من غياب البرنامج الاجتماعى والاقتصادى السياسى لها اكتفاء بالشعارات. وكيف تتقدم الجماعات إلى الأمام إن لم يكن ظهرها مؤمنا محميا؟ وبالممارسة الطبيعية للسياسة تنشأ فى الجماعات الأجنحة: وسط الجماعات، ويمين الجماعات، ويسار الجماعات. ويتم الحوار بينها أولا قبل أن يتم الحوار بينها وبين باقى التيارات والقوى السياسية وبينها وبين المجتمع. ويتخلق فكر إسلامى مستنير قادر على الحوار والتفاعل مع الواقع والدفاع عن المصالح العامة وتنتهى قصة الأخذ بالثأر من الدولة والمجتمع، وتطوى صفحة جديدة فى التاريخ. لا يحدث ذلك بين يوم وليلة، فالحافظة التاريخية رصيد طويل يمتد إلى ألف عام. والإصلاح الحديث تعثر وكبار، والنفوس مازالت تئن من عذاب الماضى وأحزانه. المصالحة العلنية إذن ضرورية، وأن تصبح الحركة الإسلامية مع الناصريين والليبراليين والماركسيين إحدى عناصر الحركة الوطنية. وليس الماضى كله سلفيا. هناك الماضى العقلانى العلمى الطبيعى الإنسانى الاجتماعى المستنير. ومن ثم لزم إبراز التعددية فى التراث، وعرض كل البدائل القديمة والحديثة حتى يختار المواطن بلا قهر من القدماء أو رفض من المحدثين.

لا يمكن حل قضايا الفكر بالسلاح، لا حل إلا بالحوار الوطنى، وإقامة الجسور بين الفرق المتخاصمة بين الأخوة والأعداء. عفا الله عما سلف ﴿عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. ويقوم الحوار الوطنى على التعددية ثم الحوار الوطنى بين فرق الأمة فى إطار العروة الوثقى إلى لا انفصام لها. وفرق الأمة الآن أربعة: الليبرالية والناصريين والإسلاميون والماركسيون، لأربعة أطر نظرية تعبر عن تاريخ الأمة المعاصر، وهى القوى الرئيسية التى تحرك رجل الشارع والتى تنتسب إليها الجماهير. وتتفق فيما بينها على برنامج عمل وطنى موحد مع الإبقاء على تعددية الأطر النظرية. وهو ما

أكده الفقهاء القدماء عندما تساءلوا: هل الحق واحد أم متعدد؟ وأجابوا بالإجماع: الحق النظرى متعدد والحق العلمى واحد. ومن أراد أن يحرر فلسطين باسم حرية شعب فلسطين فليفعل. ومن أراد أن يحررها باسم القومية فلا يتردد. ومن أراد أن يحررها باسم الجهاد وتحرير الأراضى المقدسة فليتقدم. ومن أراد أن يحررها دفاعا عن الطبقة الكادحة من شعب فلسطين فله ما يريد. تتعدد الأطر النظرية لتحرير فلسطين ولكن الجميع يتفق على التحرير كغاية وهدف قومى. ويحدث نفس الشىء لتحقيق حرية المواطن.

باسم الليبرالية أو القومية أو لماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا أو باسم تحرير الإنسان من القهر والاستغلال، وتحقيق العدالة الاجتماعية باسم الاشتراكية الديموقراطية أو الاشتراكية الإسلامية أو الاشتراكية العلمية، وتحقيق وحدة الأمة باسم وحدة العالم الحر أو الوحدة العربية أو الوحدة الإسلامية أو بإعمال العالم اتحدوا، والدفاع عن الهوية باسم الحرية الشخصية أو تأكيدا للشخصية العربية أو إثباتا للهوية الإسلامية لكم دينكم ولى دينى، أو دفاعا عن حقوق المضطهدين، والتنمية المستقلة باسم اقتصاديات السوق أو التخطيط الاقتصادى أو الاقتصاد الإسلامى أو الاقتصاد الاشتراكى، وحشد الجماهير باسم حرية الانتخابات أو بالجماهير العربية من المحيط الهادر إلى المحيط الثائر أو بالجماهير الإسلامية، الملايين فى كل مكان أو باسم الطبقات الكادحة، الأغلبية الصامتة.

بهذا المعنى كلنا إسلاميون ليبراليون ناصريون ماركسيون. كلنا مع الجماهير ضد النخب الحاكمة التى تتحكم باسم الخيانة الوطنية والعمالة للأجنبى. الإسلاميون ليسوا خصوما للماركسيين أو الليبراليين أو القوميين فلماذا يعتبرهم الماركسيون والقوميون والليبراليون خصوما لهم؟ لا توجد خصومة بين المواطنين. إنما الخصومة فى الصراع على السلطة، والسلطة فى الشعب وليست فى الحكم، السلطة فى الثقافة الوطنية وليست فى ثقافة التغريب. المهم أن يأخذ المثقفون حذرهم من

أن تستعملهم الدولة لدرء المخاطر عن النظام، تضرب هذا الفريق بذاك الفريق لإضعاف جميع الفرقاء حتى يبقى النظام فى سلام يأمن أخطار الجميع.

هذه هى "مقاصد الفلاسفة" التى عرضها الغزالى ربما أفضل مما عرض الفلاسفة أنفسهم لمن شاء أن يكتب "تهافت الفلاسفة" لنقد الجماعات الإسلامية ثم "تهافت التهافت" لنقد نقد الجماعة الإسلامية.

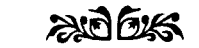

obeikandl.com

obeikandl.com

الإحياء الدينى:
كيف يخدم التقدم حقا؟

١ـ الإحياء الدينى ظاهرة تاريخية.

الإحياء الدينى ظاهرة تاريخية فى الغرب أو فى الشرق أو فى العالم العربى الإسلامى، الوسيط بين الغرب والشرق، والذى يمتد عبر أفريقيا وآسيا فى المركز، وأوروبا وأمريكا فى الأطراف. فظاهرة الإحياء الدينى ليست مقصورة على العالم العربى الإسلامى وحده، بل هى عامة فى الغرب والشرق على حد سواء بالرغم من اختلاف الظروف فى نشأتها، والأشكال فى تكوينها، والأهداف والبواعث فى حركتها.

ففى الغرب ارتبط الإحياء الدينى بنهاية الحداثة وبسلب التنوير، أفضل ما أخرج الغرب فى القرن الثامن عشر. فبعد الإصلاح الدينى فى الخامس عشر، والنهضة فى السادس عشر، والعقلانية فى السابع عشر، والتنوير فى الثامن عشر، والثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر ، وتكنولوجيا القرن العشرين، يبدو أن الغرب قد بدأ يغلق القوسين، قوسى العصور الحديثة، ومُثله فى العقل والعلم، وفى النقد للموروث، وفى معرفة قوانين الطبيعة. وبعد نقد كل شىء لم يعد شيئا، ومعرفة قوانين الطبيعة أدت إلى حربين عالميتين طاحنتين، وصعود النازية والفاشية، وإلقاء قنبلتين ذريتين على هيروشيما وناجازاكى. أما الفردية وحقوق

(*) مصر فى القرن ٢١، الآمال والتحديات، تحرير د. أسامة الباز، الأهرام ١٩٩٦، ص١٥٧-١٦٩.

الإنسان فقد انتهت إلى الأنانية والنسبية وضياع حقوق الإنسان غير الأبيض. كما تم انتهاك مُثل التنوير خارج أوروبا بداية بإحضار العبيد من أفريقيا إلى أوروبا وأمريكا وبدايات الاستعمار الحديث والقضاء على استقلال الشعوب، ونهب ثروات الأمم المغلوبة. وقوضت الحضارة الغربية نفسها بنفسها، وانتهت إلى العدمية والنسبية والشك واللاأدرية، ولم يعد الشباب قادرا على الولاء لشيء حتى للثقافات المضادة التى ازدهرت بعد ثورتهم فى ١٩٦٨. فعادت الشعوب الأوروبية تبحث فى ماضيها عن حل لأزمة حاضرها الذى كان مستقبلها فى بدايات العصور الحديثة فوجدته فى موروثها القديم، الدين أو العرق. فظهر الإحياء الدينى كنوع من الدعامة للوعى الأوروبى وهو فى مرحلة الأفول والحضارة الغربية وهى فى مرحلة النهاية، وهو اختيار ما قبل المثالية، اختيار العصر الوسيط. فإذا ما عاد الوعى الأوروبى إلى بداياته الوثنية الأولى فإنه يكتشف العرق كما هو الحال فى ألمانيا حاليا وصعود النازية. فالإحياء الدينى فى الغرب رد فعل على نهاية العصور الحديثة وإفلاسها، ومحاولة إيجاد بداية جديدة أو عود إلى البداية القديمة.

وفى الشرق بعد بدايات التصدع فى المعسكر الشرقى نظرا للحكم الشمولى القهرى، وضياع الحريات العامة وحقوق الإنسان، وتغليب قوة الدولة على حاجات الأفراد الأساسية، انهار الحكم كلية، وظهرت القومية العرقية لدى الشعوب المغلوبة أو الإحياء الإسلامى فى أواسط آسيا والتى امتد فوقها الاتحاد السوفيتى، وكما هو الحال أيضا فى أوروبا الشرقية التى كانت تعتبر فى الأطراف، العرق عند الصرب والكروات والإحياء الإسلامى فى البوسنة والهرسك وباقى دول أوروبا الشرقية عامة وفى البلقان خاصة.

وفى اليابان وكوريا، ومن أجل النهضة الاقتصادية تم إحياء التقاليد الدينية والشعبية تأكيدا للهوية واعتزازا بخصوصية التجربة، التمسك بالذات والانفتاح على الآخر، فظهر الإحياء الدينى الشعبى للشخصية الآسيوية فى الفن والأدب وأساليب الحياة وأنماط السلوك.

وفى فيتنام والهند الصينية وتايلاند والهند ظهر الإحياء الدينى فى البوذية والهندوكية من أجل الدفاع عن الاستقلال الوطنى ضد الاستعمار الغربى وضد القهر الداخلى، مرة كفاحا مسلحا فى فيتنام، ومرة مقاومة سلمية فى تايلاند والهند، باستثناء بعض ولايات الهند التى يرتبط فيها الإحياء الدينى بالعرق نظرا لتعدد القوميات والأجناس واللغات.

وفى العالم العربى الإسلامى ظاهرة الصحوة الإسلامية ظاهرة تاريخية، تتبع قانونا للتاريخ، ومن ثم لا يمكن وقف انتشارها أو مقاومتها. فهى تمثل المرحلة الثالثة فى تطور الحضارة الإسلامية. فقد كانت المرحلة الأولى فى عصر نشأة الإسلام وبناء الحضارة الإسلامية وبلوغها الذروة فى القرن الرابع الهجرى، العصر الذهبى للحضارة الإسلامية ثم انتهائها فى القرن السابع بعد هجوم الغزالى على العلوم العقلية فى القرن الخامس وإعطائه السلطان أيديولوجية القوة، وهى الأشعرية، ومده الناس بأيديولوجية الطاعة، وهو التصوف. ولم تنفع بارقة ابن رشد فى القرن السادس فى مد المسار الحضارى. وجاء ابن خلدون فى القرن الثامن ليؤرخ لمسار الحضارة الإسلامية فى هذه الفترة واضعا قانون التطور والانهيار وأسبابها، من العصبية إلى الترف، ومن البدو إلى الحضر.

ثم جاءت الفترة الثانية ابتداء من القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر، فترة الغزوات من الشرق والغرب، وفترة الحكم التركى المملوكى، عصر الشروح والملخصات. وفى نهاية هذه الفترة ومنذ مائتى عام فقط ظهرت حركات الإصلاح الدينى فى مصر والعالم العربى والإسلامى من أجل إنهاء عصر الركود والاستعمار والتخلف وبداية عصر جديد. وبعد انتصار حركات التحرر الوطنى وإنشاء الدول الحديثة وبداية عودة الاستعمار من الباب الخلفى، الاقتصادى والسياسى والثقافى، وتبعية الدول بمحض إرادتها للدول الاستعمارية القديمة بدأ الإحياء الدينى من جديد يعود إلى المواجهة بعد أن تم استبعاده بعد الاستقلال. وخرج من العزلة أو السجن، من التهميش أو التعذيب راغبا فى الانتقام من الدول ونظمها السياسية،

يعلن نهاية عصر، السبعمائة سنة الثانية، وبداية عصر جديد، مرحلة جديدة للحضارة الإسلامية منذ القرن الخامس عشر الهجرى حتى القرن الحادى والعشرين الهجرى. فتسود روح التفاؤل، ولا يعود الإسلام غريبا كما بدأ، بل يصبح الإسلام هو الحل، الإسلام هو البديل، وبدلا من حاكمية البشر، حاكمية الظلم، تأتى الحاكمية لله، حاكمية العدل.

وفى نفس الوقت يُعاد إلى الإصلاح الدينى حميته الأولى بعد أن فقدها منذ هزيمة الثورة العرابية فى ١٨٨٢ والتى أدت إلى احتلال مصر، وكانت قد اندلعت بسبب تعاليم الأفغانى: الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل. وقد أدى ذلك إلى خفض حماس الإصلاح إلى النصف عند محمد عبده، مؤثرا التغير الاجتماعى البطىء على الثورة السياسية العارمة. وسار على أثره رشيد رضا فى تيار الإصلاح ضد السلفيين العثمانيين وضد العلمانيين الأتراك حتى تم النصر للثورة الكمالية فى تركيا فى ١٩٢٤، فارتد رشيد رضا سلفيا وهابيا حنبليا. ولما كان حسن البنا تلميذ رشيد رضا فى دار العلوم، أخذ الإصلاح على يديه، وأراد تحقيق حلم الأفغانى فى إنشاء حزب ثورى يساند الإسلام الثورى ويحققه بين الناس. فأنشأ جماعة الإخوان وأصبحت بعد عقدين من الزمان أكبر تنظيم إسلامى شعبى جماهيرى مما جعلها تصطدم بالنظم القائمة، الأحزاب والقصر والاستعمار. فلما قامت الثورة المصرية فى ١٩٥٢ وكان نصف الضباط الأحرار من أعضاء مجلس قيادة الثورة منهم، ظن الناس أن الإسلام الثورى قد انتصر، الإخوان المسلمون والضباط الأحرار. وسرعان ما دب الشقاق بين أخوة الأمس فى ١٩٥٤، صراعا على السلطة. ودخل الإخوان السجن، وتحت أهوال التعذيب خرجوا فى السبعينات لتصفية الحساب مع الثورة الأولى، ثم مع ثورة التصحيح التى شجعتها ودعمتها أولا، وحين سارت أبعد من اللازم فى الصلح مع إسرائيل والتبعية للغرب وقهر الحريات العامة، وكان الحال كذلك فى المغرب والجزائر وتونس وليبيا وسوريا والعراق والأردن. فالإحياء الدينى محاولة للحاق بجذور الإصلاح الأول فكرا وتنظيما من أجل إعطائه دفعة جديدة من جيل جديد.

٢ـ الدين روح مصر.

منذ ألْهَ المصريون القدماء الشمس أو النيل أو الحيوانات الأليفة أو فرعون ظلوا حتى الآن، وكما يبدو ذلك فى دياناتهم عبر التاريخ، الفرعونية، والقبطية واليهودية، والإسلام، وكما سجلته ذاكرتهم فى الأمثال العامية، متدينين، يعتبرون الدين حياتهم الذى يمدهم بتصوراتهم للعالم وبمعاييرهم للسلوك، يجمعون بين الدنيا والآخرة، ويجعلون العمل الصالح أساس الثواب والعقاب، الرحمة فى الآخرة بعد العدل فى الدنيا. ومن الدين فى مصر القديمة خرجت الرياضيات لبناء المقابر والطبيعيات للتحنيط.

ثم تحولت الديانة الفرعونية داخل القبطية فى حسن الطوية، ومحبة الله، وحياة الروح، وكانت الكنيسة القبطية كنيسة مصر الوطنية تعبر عن نيلها فى ترانيمها، وعن زرعها وحصادها فى أناشيدها الدينية، وعن حب مصر فى قداسها.

وكانت مدينة الإسكندرية موطنا للفلسفات المسيحية واليهودية. منها خرج فيلون السكندرى فيلسوف اليهودية، وفيها تمت الترجمة السبعينية للتوراة إلى اللغة اليونانية. وفى مصر ظهر سعيد بن يوسف الفيومى. وإليها هاجر الأنبياء يوسف وعيسى عليهما السلام. وفى مصر حفظت "الجنيزة". وأبدعت مصر حياة الروح والتأمل الصوفى فى الصحراء الغربية عند القديس أنطونيوس. وفيها ظهرت دعوة التوحيد عند موسى. وظلت مصر محور الثقافات القديمة فى شمالها فى الإسكندرية، وفى جنوبها فى أسيوط، وفى غربها فى سيوة، وفى شرقها فى جبل الطور، اليونانية واليهودية والمسيحية والديانات الشرقية.

ثم صب ذلك كله فى الإسلام بعد الفتح. وما قيل فى فضائل مصر كثير بعد ذكرها فى القرآن، بلد الخير والأمان، والقدرة على الخلاص من الطغيان، طغيان فرعون. وقد قيل أن جندها خير أجناد الأرض، وأن شعبها مرابط إلى يوم القيامة. وأوصى بأقباطها خيرا فإن فيهم رحم المسلمين. ورأى المقوقس عظيم مصر أن الفاتحين الجدد أهل وأصهار، محررين لمصر من طغيان الرومان. وظلت مصر بعيدا

عن المغالاة فى العقائد، منغمسة فى الشرائع، بعيدة عن الفلسفات النظرية، مبدعة فى التشريعات العملية. ففيها قل الكلام والفلسفة وازدهر الفقه والتصوف. وحفظت عبر العصر المملوكى المدونات والموسوعات الكبرى. ومنها حديثا خرجت نهضة العرب وحركة الإصلاح الدينى.

فالدين فى ذاته ومصر عبر تاريخها حقيقة واحدة، الدين بنيتها. والتدين تاريخها. إنما الذى حدث فى هذا الجيل هو قتال بين الأخوة الأعداء، السلفيين والعلمانيين، بين ما يظنون أن الدين هو عزلة عن الحياة والمجتمع، عقائد وشعائر لا صلة لها بالوطن ولا بالناس، حقيقة مستقلة بذاتها، غاية فى ذاتها وليس وسيلة لغاية أخرى، الحفاظ على وطن وصنع حضارة، ومن يظنون أن الغرب هو مهد الثقافة، وأن الحضارة الغربية إنما كانت انقطاعا عن الدين وانفصالا عنه، وأن هذا هو النموذج الذى يجب أن يحتذى عند كل حضارة ولدى كل شعب. اتهم السلفيون العلمانيين بالإلحاد واتهم العلمانيون السلفيين بالخيانة.

وبصرف النظر عن الصراع على السلطة بين الفريقين الذى قد يكمن وراء هذا الاقتتال طبقا لمنطق الاستبعاد الممثل فى "أنا وحدى" سواء الذى تمارسه الدولة أو المعارضة بجناحيها، وبصرف النظر عن مستويات الثقافة وراء هذين التيارين، السلفى الذى يعبر عن ثقافته العامة، والعلمانى الذى يعبر عن ثقافته الخاصة، ففى الحقيقة هناك خطابان على مستوى الثقافة السياسية. الأول الخطاب السلفى الذى يعرف كيف يقول، إذ أنه يستعمل الثقافة الدينية ومفاهيمها وأدلتها ونماذجها وخيالاتها ومأثوراتها وأبطالها ونصوصها التى مازالت حية ومؤثرة فى قلوب الجماهير، ولكنه لا يعرف ماذا يقول لأن مضمونه تقليدى، ومعاركه مكسوبة من قبل مثل الإيمان والعقائد والشعائر والأخلاق. والثانى الخطاب العلمانى الذى يعرف ماذا يقول لأنه يتحدث عن الفقر والحرية والأسعار والإسكان والتعليم والمواصلات، ولكنه لا يعرف كيف يقول لأنه يستعمل مفاهيم الأيديولوجيات العلمانية للتحديث الليبرالى أو القومى أو الماركسى دون الاعتماد على ثقافة

الجماهير، فيبدو متعالما غربيا نخبويا سلطويا علويا. والجماهير تنتظر خطابا ثالثا فيه لغة الخطاب السلفى ومضمون الخطاب العلمانى، به ثقافتها وقيمها ونماذج بطولاتها ونصوصها الدينية وأمثالها العامية كأدوات للتعبير عن مصالحها المباشرة فى الحرية والعدالة الاجتماعية والخدمات العامة والحاجات الرئيسية وهمومها اليومية. وهذا ما يسمى بالخطاب الإسلامى المستنير، أو بالإسلام الاجتماعى، أو بالإسلام السياسى القادر على المصالحة الوطنية بين السلفيين والعلمانيين فى حوار ديموقراطى وتعددية فكرية، وفى نفس الوقت حاملا لمصالح الناس، ومعبر عنها وحاشد لقواها ومحقق لرغباتها.

٣ـ الأسباب الداخلية والخارجية للإحياء الدينى.

تكاد تجمع الآراء على أن هزيمة يونيو ١٩٦٧ كانت البداية العلنية فى هذا الجيل للإحياء الدينى على كافة المستويات الثقافية والطبقات الاجتماعية. فكان البعد عن الله أحد أسباب الهزيمة، وكان تمسك العدو بالدين أحد أسباب نصره. ولما كانت من طبيعة التفكير البسيط تفسير الظاهرة بعامل واحد، أصبح العامل الدينى هو الحاسم عند الجماهير.

وكانت الهزيمة أيضا عند الطبقات المتوسطة، التى كانت دعامة بناء الثورة المصرية واختياراتها الاشتراكية الوطنية، نهاية للمشروع القومى ولحلم الثورة التى بدت منتصرة على الأحلاف العسكرية فى ١٩٥٤ وفى معركة التأميم فى ١٩٥٦ وبلغت الذروة فى تجربة الوحدة مع سوريا فى ١٩٥٨-١٩٦١ ثم فى القوانين الاشتراكية فى ١٩٦١-١٩٦٣ ثم فى مناهضة الحلف الإسلامى فى ١٩٥. ثم جاءت هزيمة يونيو ١٩٦٧ تجهض كل شىء، الشعب، والقائد، والفكر والخيال.

وكانت إزالة آثار العدوان هو الحلم البديل الذى بدأ بمعركة رأس العش، وتدمير المدمرة إيلات فى ١٩٦٧، وفى حرب الاستنزاف فى ١٩٦٨-١٩٦٩، وفى النقد الذاتى بعد مظاهرات الطلاب فى ١٩٦٨، وفى الإعلان عن النوايا: تأميم تجارة

الجملة وقطاع المقاولات، ومضاعفة الدخل القومى، وإنشاء الحزب الطليعى. وبعد اختفاء القيادة الثورية فى ١٩٧٠ وبداية قيادة جديدة اعتمدت على إعادة بناء القوات المسلحة، وتحت ضغوط الطلاب فى مظاهرات ١٩٧١-١٩٧٢، والرغبة فى رد الكرامة للوطن وللجيش وللأمة، وتحريك القضية على الصعيد الدولى تم انتصار أكتوبر ١٩٧٣. وسرعان ما تم تفسيره بالربط إيجابا بين الإيمان والنصر، ورفعت شعارات العلم والإيمان، وكثرت البرامج الدينية فى أجهزة الإعلام. وساعدت الدولة فى ذلك بالإفراج عن الإخوان المسلمين فى أوائل السبعينات، وتدعيم الجماعات الإسلامية الناشئة فى السجون كرد فعل على استسلام الإخوان، من أجل تدعيم القيادة السياسية الجديدة والاختيار السياسى الجديد، الانفتاح الاقتصادى، والسلام الاجتماعى، والصلح مع إسرائيل، والتعاون مع الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية التى بيدها ٩٩ فى المائة من اوراق الشرق الأوسط. فبعد اتفاق المصالح مع اختيارات الدولة والجماعات الإسلامية فى بداية السبعينات على تصفية اختيارات الثورة الأولى، بدأ التعارض بينهما فى أواخر السبعينات على اختيارات الثورة الثانية، الصلح مع إسرائيل والتحالف مع الغرب، والقوانين المقيدة للحريات.

وبسبب غياب الاختيارات الاشتراكية الأولى للثورة، وبداية ظهور نتائج الانفتاح الاقتصادى على الطبقات الشعبية اشتدت قضية الفقر مع غلاء الأسعار، ورفع الدعم عن المواد الأولية، والخضوع لسياسات السوق، وتفاقم أزمة الإسكان والمواصلات والتعليم مع ازدياد السكان وظهور المناطق العشوائية حول القاهرة والمدن الكبرى. وزادت البطالة بين الحرفيين العائدين من العراق والخليج وليبيا وبين الخريجين. فسهل تجنيدهم، من لا شىء إلى أمير الأمراء، فأصبح الإسلام وسيلة للاحتجاج وحاملا للمطالب الاجتماعية، وقناة للتعبير عن الغضب، وطريقا من التهميش إلى المركزية فى الواقع وفى الإعلام.

وكلما ازداد الفساد الأخلاقى والاجتماعى زادت موجة الاحتجاج الصامت والفعلى عن طريق الهروب من المجتمع والنزول تحت الأرض أو فى الصحراء وعلى

حواف الوديان لتكوين مجتمع الطهارة والعفاف، وحدث الفصام بين جماعات المستقبل القادم وعموم المجتمع الكافر كما يتبدى فى الإعلانات التليفزيونية والسينمائية والمسرحيات الساقطة وأساليب الحياة العامة وعلب الليل وأفراح الفنادق الكبرى وحفلات الأندية وأغانى الحوارى والأزقة.

ووسط هذا كله تضيع الهوية، ولا يعرف الشباب الطاهر فى أى مجتمع هو يعيش، وأى تقاليد هو يمارس؟ هل هو مصرى أم عربى أم إسلامى، شرقى أم غربى، أفريقى، أم متوسطى، وطنى أم إسرائيلى، بلدى أم أمريكى؟

ونظرا لغياب الهوية ظهرت هويات مصطنعة، بحراوى صعيدى، أهلى زمالكى، فلاح أو أفندى. وظهرت رموز للهوية الضائعة تشير إلى التمسك بها مثل الجلباب واللحية، الطب النبوى وحياة الصحراء، والأغانى الدينية الجامعية والزوايا البسيطة، والزواج المبكر وبلا تكاليف كما كان الحال أيام الرسول.

وكما ضاعت الهوية فى الحياة الفردية والاجتماعية تضيع أيضا فى الحياة السياسية بالتبعية السياسية للقوى الخارجية وفقدان القدرة الذاتية على أخذ القرار، وعدم القدرة على إطعام النفس. ويزداد العجز العربى يوما وراء يوم، وتتفتت قواه، ويتحول الوطن الإسلامى إلى دويلات مذهبية وعرقية، ويضيع مثال الأمة الواحدة، ويقتل المسلمون بعضهم بعضا فى حربى الخليج الأولى والثانية، ويتحالف المسلمون مع الأعداء ضد بعضهم البعض. وتتكالب الدول الأجنبية على المسلمين كما تتكالب الحيوانات المفترسة على فريستها كما هو الحال فى فلسطين، والبوسنة والهرسك والشيشان وبورما وكشمير. ويزداد العداء للمسلمين فى ألمانيا وفرنسا. ويظهر عداء العالم كله فى الشرق والغرب للمسلمين، ويؤخذ الإسلام كعدو بديل عن الاتحاد السوفيتى بعد زوال الخطر الشيوعى، ويتم التركيز على المسلمين حصارا وضربا بعد خفوت صوت لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية وانشغال آسيا بنهضتها الاقتصادية. فلم يبق إلا الإسلام كإمكانية وحيدة لتحدى نظام العالم الجديد.

٤ـ توظيف الإحياء الدينى من القوى الداخلية والخارجية.

إذا كانت الأسباب الداخلية والخارجية تبدو أحيانا مبررا للإحياء الدينى على نحو إيجابى، فإن توظيفه من القوى الداخلية والخارجية واستخدامه واستعماله يبدو على نحو سلبى نظرا لأنه لم يستطع حتى الآن أن يكون رؤيته المستقلة وتنظيمه المستقل.

فقد تم توظيفه أولا وببراعة كغطاء للانفتاح الاقتصادى، وقوة رأس المال الخاص تحت دعاوى كثيرة مثل البنوك الإسلامية التى تقوم على المرابحة وليس على الرباء، وشركات توظيف الأموال التى تعتبر أكبر عملية لنهب أموال المواطنين أمام سمع الدولة وبصرها ومن خلال إعلاناتها ورجالاتها ووجهائها. وكثرت الشركات الإسلامية، إسلامكو، إيمانكو، للملابس والمجوهرات، والزى والأفراح، والعيادات ودور المناسبات. فالإسلام ضمان للنجاح ووسيلة للربح، والإعفاءات من العوائد فى حالة تخصيص الدور الأول فى العمارة الشاهقة كمصلى للناس، ونيل الحسنيين فى الدنيا والآخرة.

وانتشر الإسلام المحافظ الشعائرى العقائدى الشكلى العقابى الردعى، وأصبح أداة للضبط الاجتماعى والسيطرة السياسية، وهو ما أصبح يسمى فى بعض الأدبيات "الإسلام السعودى" أو "الإسلام الخليجى". الإسلام فى الظاهر، والغرائز فى الباطن، التشدد على السطح والتسيب فى العمق، الصرامة فى الشكل والجنس فى المضمون. وكل ذلك باسم الشرع: تعدد الزوجات، العقود الشرعية، السُنَة والاقتداء، المباح والحلال. فبيعت فتيات مصر وصغار السن فى القرى والنجوع لمشايخ الحجاز والخليج، دفعا للفقر وتحت ستار الدين.

فإذا ما استولت حركة إسلامية على السلطة فى بلد ما مثل إيران أو السودان أو أفغانستان فإنها تصبح أممية، تدعو إلى الحكم الإسلامى خارج أوطانها، فتصطدم بالدول المجاورة. وقد تنشأ الحروب والنزاعات كما هو الحال بين إيران والعراق أو إيران ودول الخليج أو إيران وأفغانستان من ناحية والجمهوريات

الإسلامية فى أواسط آسيا من ناحية أخرى، وكما هو الحال بين السودان ومصر، أو بين الفصائل المتحاربة داخل أفغانستان بعد انتصار المقاومة الإسلامية على الحكم الشيوعى. وتنشأ قضية حقوق الإنسان، وضياع الحريات العامة، وتطبيق الشريعة بمعنى قانون العقوبات، وتشجيع جماعات الإرهاب المسلح للاغتيالات وتدبير الانقلابات باسم أممية الإسلام. وتنشأ الحروب المذهبية باسم الإسلام بين شمال السودان وجنوبه، أو بين وسط العراق وبين جنوبه وشماله، أو بين قبائل أفغانستان. فإن تصل الحركة الإسلامية إلى الحكم أو كادت تصل ينقلب عليها الجيش، ويلغى الانتخابات فتنشأ الحروب الأهلية، بين جيش مغتصب للسلطة وحركة إسلامية تحت الأرض كما هو الحال فى الجزائر.

فإذا ما رأى الغرب فى الحركة الإسلامية تأييدا لاقتصاديات السوق، وللاقتصاد الحر، وأن الرأسمالية ليست جريمة، وأن الشرع مع التجارة والربح بشرط غلق الأسواق أوقات الصلوات ودفع الزكاة والتبرعات لأعمال الخير، وأنها لا تمثل خطرا على الشركات المتعددة الجنسيات ولا على آليات السوق ولا على الرأسمالية العالمية بل هى جزء منها من خلال عوائد النفط والمضاربات فى أسواق المال، وأنه يأمن من خلالها من التأميم والمصادرة وسيطرة الدولة على البنوك، والملكية العامة لوسائل الإنتاج فإنه يؤيدها معنويا وماديا. فلا تعارض بين الأخلاق الدينية وروح الرأسمالية. وإذا ما رأى النظام العالمى الجديد فى الإسلام حليفا سياسيا له سواء على مستوى الدول كما هو الحال فى شبه الجزيرة العربية وتركيا والمغرب وأواسط آسيا، أو على مستوى الجماعات الإسلامية المعارضة فإن الإسلام يصبح حليفا استراتيجيا للغرب يتبادل معه المنافع الاقتصادية والسياسية سواء على مستوى الدول الإسلامية لقمع الحركات الإسلامية المناهضة للغرب أو على مستوى الجماعات الإسلامية المسلحة لتهديد الدول المستقلة وتخويفها بها ولإجبارها على مزيد من التبعية، وتصبح الدولة المستقلة بين شقى الرحى، مجبرة على قبول أحد الاختيارين وكلاهما مر.

وإذا ما رأت الصهيونية العالمية فى الحركات الإسلامية تشددا تعيش عليه الحركات المعادية للسامية فإنها تؤيدها من أجل إيجاد شرعية للصهيونية كحركة دفاع عن اليهودية، كما أيدت إسرائيل "حماس" فى بدايتها ضد منظمة التحرير الفلسطينية. فالإرهاب يولد الإرهاب، والتطرف يؤدى إلى التطرف. واللاعب بالنار أول من يحترق بها.

٥ـ الإحياء الدينى والوحدة الوطنية.

وعادة ما يثار موضوع الخشية على الوحدة الوطنية من الإحياء الدينى إذا ما تعددت الديانات كما هو الحال فى مصر. إذ قد يولد الإحياء الدينى الإسلامى الإحياء الدينى القبطى، ومن ثم تصبح الوحدة الوطنية فى خطر. وإذا ما أخذ الإحياء الدينى فى كلتا الحالتين شكلا سياسيا، فى صورة حزب أو تنظيم أو منصب فى الدولة- كما هو الحال فى لبنان- فهل يمثل ذلك خطورة على الوحدة الوطنية.

الحقيقة أن الأقباط فى مصر ليسوا عنصرا أو عرقا أو جنسا أو طائفة أو مذهبا أو دينا، بل هم جزء من تاريخ مصر ونسيجها الوطنى. هم مصريون أولا وأقباط ثانيا. وليس لديهم شعور دينى أو مذهبى أو طائفى بالعزلة عن الكيان الأكبر. بل إن لفظ الأقلية لا ينطبق عليهم لأنه لفظ عددى إحصائى ولا يدل على جوهر أو هوية. هم أصحاب البلاد عندما وفد عليهم العرب والمسلمون فاتحين ومخلصين لمصر من ظلم الرومان. هم أصهار وأهل رحم. منهم من تبنى الدين الجديد، الإسلام، ومنهم من بقى على الدين القديم، القبطية، المسيحية الأرثوذكسية المصرية، فى كنيسة وطنية تعكس مصر الأم، والوطن الأكبر.

وعلى مستوى الدين الشعبى لا يوجد فرق بين زيارة قبور الأولياء. يذهب المسلمون إلى كنائس السيدة مريم العذراء، ومارى جرجس، وسانت تريزا للتبرك والدعاء كما يذهب الأقباط إلى الحسين والسيدة زينب والشافعى للتبرك أيضا وإجابة المطالب. الطقوس والأعياد الشعبية واحدة، من الديانة الفرعونية، عروس النيل، وشم النسيم، والسبوع والأربعين عبر القبطية حتى الإسلام.

وكان الأقباط فى مقدمة الحركة الوطنية المصرية كما بدا ذلك فى ثورة ١٩١٩، وحدة الهلال والصليب. وكان أقطاب المعارضة السياسية منهم. وكان منهم أبطال فى حرب أكتوبر ١٩٧٣. فهم جزء من الكنيسة الشرقية التى تقوم على التراث الوطنى للشرق، وليسوا جزءا من المسيحية الغربية التى ارتبطت كنائسها بالاستعمار والتبشير والتغريب. فهم جزء من كل واحد. لذلك لم تظهر فيهم بوادر انفصال أو انعزال ولم يتكون لديهم شعور بالعزلة أو الاستبعاد. لقد وصف القرآن مريم البتول وفضلها على نساء العالمين، ووصف المسيح بأنه روح الله وكلمة منه. وأثنى على النصارى وحواريى المسيح لما تذرف عيونهم من الدمع بما عرفوا من الحق، منهم القسيسون والرهبان، وهم لا يستكبرون. دعاهم القرآن إلى المساواة التامة مع المسلمين فى آية المباهلة، ألا يتخذوا بعضهم بعضا أربابا من دون الله، وأن يأتوا إلى كلمة سواء بينهم، عبادة إله واحد.

ولكن فى لحظات الضعف، ضعف الدولة، وضعف النظام السياسى تظهر بعض علامات التوتر خاصة فى صعيد مصر بين الأقباط والجماعات الإسلامية. ففى غياب المشروع القومى، والهدف القومى، والتحدى القومى ينقلب المواطن إلى الداخل، إلى قريته ومحافظته ومنطقته وثقافته كملاذ وملجأ له. فيصبح المواطن جيزويا بحراويا أو أسوانيا صعيديا، مسلما أو قبطيا، فلاحا أو بدويا. فى غياب المشروع الكلى تظهر المشاريع الجزئية، وفى تعثر الهوية الوطنية تظهر الهويات العرقية والطائفية.

فإذا ما اشتدت جماعات المعارضة، الجماعات الإسلامية مثلا، ولا تقوى على مواجهة الشرطة وقوى الأمن فإنها تلجأ إلى إحراج الدولة بالاعتداء على بعض المواطنين الضعفاء، شرطيا أو أمين شرطة أو قبطيا أو على رموز الدولة البارزين، وزير أو رئيس مجلس نيابى أو صحفيا أو رئيس وزراء أو رئيس دولة. وربما تجد فى الفقه القديم ما يشرع لهم ذلك. فليس القبطى هو الهدف بل الهدف إحراج الدولة وإثبات عجزها عن حماية المواطنين ورموزها.

فإذا ما أرادت الدولة أن تقوى شوكتها عن طريق قوانين استثنائية مثل المحاكم العسكرية، فقد تقوم هى نفسها بإشعال الفتنة حتى تجد ذريعة لسن قوانين ضد الفتنة الطائفية ولحماية الوحدة الوطنية. فالغاية تبرر الوسيلة. وقد يقع شجار بين مواطنين لأسباب عادية ويتضح بالمصادفة أن أحدهما قبطى والآخر مسلم فيتحول الشجار إلى صراع طائفى. وقد يقع صدام بين عائلتين فى الصعيد لأسباب اجتماعية أو أخذا بالثأر، ويُعطى للأمر دلالة طائفية إذا ما اتضح أن إحدى العائلتين قبطية والأخرى مسلمة.

أما الدفاع عن الثقافة الغربية فليس مشروطا بالقبطية. فهناك أقباط من أنصار الثقافة الوطنية والإسلام الحضارى بل والإسلام السياسى. وهناك مسلمون من دعاة الثقافة الغربية ومعادون للإسلام السياسى. كما أن القبطية ليست مشروطة بالغنى. فهناك أقباط فقراء مثل حى شبرا وصعيد مصر كما أن هناك مسلمين أغنياء. فالغنى والفقر علامتان على الطبقة الاجتماعية وليس على الانتماء الدينى.

٦ـ الدور التاريخى للإسلام السياسى.

مادامت الصحوة الدينية ظاهرة تاريخية فى مصر والعالم العربى الإسلامى بل وفى الغرب والشرق على السواء، ومادامت تتفاقم أزمة التحديث الذى تم بمعزل عن الدين والتراث القومى للشعوب أو أحيانا مناهضا له وبديلا عنه، فإن دور الدين سيظل متصاعدا باستمرار كبديل أول يجد الناس فيه هويتهم وخلاصهم من أزماتهم، حقيقة أو وهما، فعلا أو قولا، تغيرا أو شعارا. ويمكن أن يتم ذلك على مرحلتين:

- الأولى: تجديد التيارات الفكرية والسياسة نفسها بحيث تعيد صياغة رؤيتها وأسسها ومصادرها وطريقة التعبير عن نفسها للجماهير فتبدأ من تراث الناس الشعبى، والتراث الدينى مكونه الرئيسى. فالليبرالية التى كونت تاريخ مصر الحديث والتى على أساسها قام مشروع النهضة الأول منذ القرن الماضى بدأت مرتبطة بالإسلام عند الطهطاوى، ثم بدأ الانفصال عنه تدريجيا عند على مبارك وطه

حسين حتى تحول إلى تغريب مطلق عند سلامة موسى ولويس عوض. ولقد استطاع العقاد إعادة هذا التيار إلى الرحم الذى نشأ منه، وهو التراث الإسلامى كما وضح ذلك فى العبقريات. فإذا استطاعت الليبرالية، فكرا وسلوكا، نظرية وممارسة، نظرا وعملا، إعادة صياغة نفسها بحيث تبدأ من التراث الإسلامى، وتجعل التوحيد تحررا للوجدان الإنسانى تحت شعار "لا إله إلا الله"، وتأصيلا لليبرالية فى أقوال الصحابة مثل قول عمر "لماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟" بدأت تنغرس قيمها فى النفوس، وتحمى نفسها من الوقوع فى العلمانية والتغريب، وتصبح تراثا نابعا من قلوب الناس، ومعبرا عن تراثها ووجدانها. كما تقوم القومية بتجديد ذاتها وتخليص نفسها من الظروف التى نشأت فيها عند ساطع الحصرى وميشيل عفلق، وكما جسدتها الناصرية فى مصر وربطها بالتراث الإسلامى. فالقرآن عربى، أنزل بلسان عربى، والعروبة هى اللسان، والإسلام أتى تحريرا للعرب ولشبه الجزيرة العربية ثم انطلاقا منها إلى خارجها شرقا فى فارس وغربا عند الروم. والإسلام أكبر دعامة للوحدة العربية، ورافد مكون للقومية العربية كتاريخ وتراث ومشترك. حدث هذا أيضا أثناء الحروب الصليبية وأثناء حركة التحرر الوطنى الحديث. وتقوم الاشتراكية، والماركسية إحدى صورها، بتجديد نفسها وربطها بالعدالة الاجتماعية فى الإسلام وبالملكية العامة، وأن الأرض لمن يفلحها كما قال ابن حزم، وأن العمل مصدر القيمة بدليل تحريم الربا، وأن الأموال والثروات مشاركة بين الناس بدليل الزكاة، وأن الملكية تصرف واستثمار وانتفاع وليست اكتنازا أو احتكارا. فتحمى الاشتراكية نفسها من تهمتى المادية والإلحاد كما حذر الأفغانى من قبل فى "الرد على الدهريين". كما يحمى الإسلام نفسه من نفسه، من الوقوع فى الإسلام "المؤسسى" الذى يتبع الدولة وأجهزة الإعلام ويفقد استقلاله وثقة الناس به، والذى يصدر التوجيهات الإسلامية بناء على سياسات الحكم فى الحرب والسلام، فى الاشتراكية أو فى الانفتاح الاقتصادى، فى الوطنية أو القومية. كما يحمى نفسه من الإسلام الشعائرى الشكلى الصورى الذى لا يطعم جائعا، ولا يغنى فقيرا، ولا يعلم جاهلا، ولا يكسى عاريا، ولا يأوى يتيما، ولا يعالج مريضا.

- والثانية: تجديد المشروع القومى الموحد الذى تتبناه الدولة ثم تجنيد الناس له بفعل التراث الإسلامى وثقافة الجماهير. فقد اعتمد مشروع محمد على على سلطة الدولة، واعتمد مشروع عبد الناصر على زعامة الفرد. ولما كانت المشاريع القومية متجددة طبقا للظروف، وكان التاريخ يسير بحركة بطيئة للغاية فإنه يمكن إعادة صياغة مشروع قومى تتأكد فيه الأهداف الوطنية، ويجد كل تيار فكرى وسياسى فيه نفسه، وتتبناه الجماهير، وترى فيه معبرا عن ثقافتها وموروثها وتأكيدا لمصلحتها ومتطلباتها. فمازالت قضية تحرير الأرض فى الوجدان القومى والتى يرمز لها القدس الشريف. ومازالت قضية وحدة الأمة ضد التجزئة والتفتت والحروب الأهلية ومخاطر الانفصال قضية واردة فى لبنان وسوريا والعراق والمغرب العربى. ومازالت قضية تنمية الموارد البشرية والمادية واردة بحيث يستطيع الوطن أن يطعم نفسه بنفسه، وأن يعتمد على ذاته دفاعا عن استقلاله، ورفضا لارتهان إرادته. والإسلام قادر على تحقيق هذه الأهداف الوطنية للتحرر والوحدة والاعتماد على الذات. وإذا كان الشباب يعانى من الضيق والميوعة والفساد الأخلاقى فإن الإسلام قادر على تربية الشباب وإعطائهم مثلا جديدة فى التقوى والعمل الصالح، بدلا من أن يصبح الإسلام مجرد رفض للواقع وانقلاب عليه وتدمير له كما هو الحال فى جماعات العنف المسلح. إن الإسلام المستنير، العقلانى الاجتماعى الوطنى هو القادر على المساهمة فى تجديد المشروع القومى والمساهمة فى صياغته بما لديه من انفتاح فكرى وسياسى وقدرة على الحوار وعدم مخاصمة أحد وربط الإسلام بالمصالح العامة وبحركة الجماهير، كما حدث عندما كان الإسلام المكون الرئيسى لحركة التحرر الوطنى.

٧ـ الإسلام السياسى واحتمالات المستقبل.

يتزايد دور الإسلام السياسى فى مصر وفى أرجاء الوطن العربى والإسلامى بل وفى الهند والصين شرقا وفى أوروبا وأمريكا غربا، ولكن القضية هى: هل هو الإسلام المنغلق أم الإسلام المنفتح؟ الإسلام الرافض أم الإسلام المحاور؟ الإسلام

الذى يريد أن يفرض نفسه بالعنف المسلح أو الإسلام الذى يعبر عن مصالح الناس فيختاره الناس طواعية واختيارا؟

إن التحدى الحالى أمام الإسلام السياسى فى الداخل تحديان:

- الأول: الرفض المطلق لكل ما هو موجود باعتباره لا إسلام فى صراع لا يمكن حله إلا بقضاء أحد الطرفين على الآخر، الإيمان والكفر، الإسلام والجاهلية، الله والطاغوت، حاكمية الله وحاكمية البشر. ثم يتجاوز هذا الرفض النفسى نفسه إلى رفض للواقع والتعامل معه والعزلة عنه، ثم تكوين جماعات سرية تمارس العنف من أجل أن تقوم بانقلاب عام فى الدولة تستولى به على الحكم وتحقق الإسلام لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. فإلى أى حد يمكن تحويل هذا الوضع النفسى الاجتماعى السياسى إلى وضع آخر يقوم على التعددية وحق الاختلاف وعدم جواز التكفير، وحرمة دم المسلم، وان اختلاف الأئمة رحمة بينهم، وأن الكل راد وأن الكل مردود عليه.

- والثانى: الشعائرية والشكلية والمظهرية والفرعية، والدخول فى معارك تم كسبها من قبل والمسلمون فيها منتصرون وترك معارك مازالت قائمة والمسلمون فيها منكسرون، مثل الاحتلال والتخلف والتجزئة والسلبية. وعلى هذا الأساس يتم فهم الشريعة وتطبيق الحدود مع أن أحكام الشرع وضعية، كما يقول الشاطبى تقوم على معرفة السبب والشرط والمانع. فلا قطع يد فى حد السرقة عن جوع وبطالة وعوز. فالحدود واجبات بعد الحقوق، حق المسلم فى الغذاء والكساء والسكن والعلاج والتعليم، وهو ما يكفله له بيت المال. إن الإسلام أرحب بكثير من الشكل والمظهر والعلاقة بين الجنسين. بل هو أدخل فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والقانون والتعليم والعلاقات الدولية. صحيح أن هذه المظاهر تفيد إعلاميا وتساعد على تأكيد الهوية، ولكنها لا تكفى لتغيير الواقع الاجتماعى العريض والدخول فى تحديات العصر.

أما التحدى الخارجى، فكيف يتعامل الإسلام مع نظام عالمى جديد ذى قطب واحد بعد انهيار القطب الأول؟ كيف يتعامل الإسلام مع الغرب أولا، ومع الشرق ثانيا، ومع العالم الثالث، الأفريقى الآسيوى ثالثا.

صحيح أن الغرب بدأ يأخذ الإسلام بديلا عن الشيوعية، من أجل خلق عدو جديد يساعده على تجنيد قواه وتقوية نفسه. وهذا ما يحدث فى البوسنة والهرسك والشيشان، وما يقع من اضطهاد للمسلمين الأتراك فى ألمانيا. فهل الإسلام عدو للغرب؟ لقد استطاع الإسلام عبر التاريخ أن يورّث الغرب حضارة اليونان وأن يورّثه حضارته الخاصة فى العصر الوسيط وكان باعثا على النهضة الأوروبية الحديثة. ومازال الإسلام قادرا على تجديد روح الغرب وإعطائه نموذجا جديدا من المثل والقيم يتجاوز بها الغرب أزمته وخواءه الروحى، ويتعالى على نسبيته وشكه ولاأدريته وعدميته، وتساعده على العودة إلى مثل التنوير، العقل والعلم والإنسان والحرية والعدالة الاجتماعية، تلك المثل التى كفر بها فى القرن العشرين بعد حربين عالميتين طاحنتين، وبعد أن تفجرت العنصرية الدفينة فيه. والإسلام يقبل الديانات السابقة، اليهودية والمسيحية، فهما جزء منه وهو جزء منهما. أما على مستوى المصالح فالإسلام والغرب يعيشان على ضفتى بحر واحد، المتوسط، الإسلام فى الجنوب والشرق، والغرب فى الشمال والغرب. ومن هذا الجوار نشأت علاقات تاريخية تقوم على الصراع أحيانا وعلى الحوار أحيانا أخرى. ولما كان العالم الآن ينتقل من صراع القوى إلى توازن المصالح فإن مصلحة الغرب فى ثروات العالم العربى الإسلامى فى الطاقة والأسواق، ومصلحة المسلمين فى التعلم والدخول فى عصر الحداثة تجعل الإسلام والغرب طرفى حوار وتبادل مصالح وليس قطبى صراع وتوازن قوى. لا يمثل الإسلام أى تهديد للغرب بل هو عامل مساعد لتجديده وبعث روح جديدة فيه. وحضور المسلمين فى الغرب وإقامتهم فيه لا يمثل خطرا على هوية الغرب بل تأكيد للتعددية التى تقوم عليها الحضارة الغربية والإثراء المتبادل بين حضارتين متكافئتين. فإذا ما استطاع الغرب التخلى عن مركزيته وأسطورة تفوقه، وجاور باقى الشعوب فى أفريقيا وآسيا على مستوى الندية فإن

العالم حينئذ يصبح قرية واحدة بلا مركز وأطراف. وإن نهضة الشرق الحالية فى اليابان والصين والهند والملايو والجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا وسنغافورة لتبين أن العالم لم يعد له مركز واحد. وفى الوقت الذى تتعدد فيه المراكز، وينهض الشرق يصبح الإسلام كما كان فى البداية نقطة تعادل واتزان بين الشرق والغرب فى عالم متعدد المراكز ومتعدد الثقافات ومتحد فى المثل والقيم المشتركة من أجل خلق عالم أفضل تسوده الحرية ويعمه السلام.

obeikandl.com

obeikandl.com

مستقبل المنطقة العربية والمتغيرات الدولية

أولا : مقدمة، مسار العرب فى التاريخ.

فى هذا الوقت العصيب الذى أصبح فيه الوطن العربى فى مفترق الطرق، ومؤسساته القومية فى مهب الريح، بعد العدوان على العراق وتسليم بغداد، وعجز الوطن العربى عن درأ العدوان، ومواصلة المقاومة، وتهديد سوريا ولبنان وإيران بل وشبه الجزيرة العربية، ومصر وليبيا حتى اليمن والسودان، يجدر التساؤل حول"مستقبل المنطقة العربية والمتغيرات الدولية". والحقيقة أن العرب لا يعيشون فى منطقة جغرافية فقط، شبه الجزيرة العربية وامتداداتها فى الشمال فى العراق والشام وفى الشرق، فى مصر والسودان والمغرب العربى كله بل يعيشون كشعب واحد، فى وطن واحد، بتاريخ مشترك، وثقافة تجمع بين الوحدة والتنوع، وهموم واحدة، مصير الوجود العربى فى التاريخ.

ولا يمكن تحديد مستقبل الوطن العربى دون معرفة حاضره. ولا يمكن معرفة حاضره دون معرفة ماضيه. فالتاريخ مسار واحد متصل، من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل. ومن لا يعرف ماضيه لا يعرف حاضره. ومن لا يستطيع تشخيص حاضره ومعرفة فى أى مرحلة من التاريخ هو يعيش لا يستطيع استشراف

(*) المائدة المستديرة لجامعة ناصر الأممية، ٢٣-٢٦ يوليو ٢٠٠٣، طرابلس، ليبيا.

مستقبله. وربما كانت أحد مثالب العرب هو وجود وعى سياسى لا يقوم على وعى تاريخى كاف. فتلعب الاتجاهات والقوى والأحزاب السياسية أدوارا غير أدوارها. قد تقوم بدور أجيال مضت كما تفعل الحركة السلفية أو بدور أجيال قادمة كما تفعل الحركة العلمانية. ولا أحد يقوم بجيله هو فى اللحظة التاريخية الراهنة لصعوبة تشخيصها إجابة على سؤال: فى أى لحظة من التاريخ نحن نعيش؟ هل نحن جيل الثورة أم جيل الثورة المضادة؟ هل نحن فى عصر الاستقلال الوطنى الذى طالما دافعنا عنه واستشهدنا فى سبيله أم أننا فى عصر التبعية؟ هل نحن الذين قاومنا الاستعمار والصهيونية أم نحن الذين تحالفنا مع الاستعمار واعترفنا بالصهيونية وصالحناها، والأراضى العربية مازالت محتلة بما فى ذلك كل فلسطين والقدس العربية؟ هل نحن الذين حاولنا توحيد الأمة على الأقل على مستوى مشاعرها وأهدافها أم نحن الذين قسمناها وساهمنا فى تجزئتها بعدوان بعضنا على البعض الآخر فزادت القطرية، مما شجع الآخرين على العدوان علينا لمزيد من تفتيت الأمة إلى فسيفساء عرقى وطائفى فى وقت يتوحد فيه العالم بقيادة القطب الأوحد، الولايات المتحدة الأمريكية، باسم العولمة وقوانين السوق، واستغلال الأمم المتحدة لحصار الشعوب، ثم العدوان عليها، وضربا بالشرعية الدولية.

ولا يوجد مسار تاريخى واحد لكل الشعوب. ولكل شعب مساره التاريخى الخاص. ولما أخذت أوروبا مركز الريادة فى عصورها الحديثة فإنها دونت التاريخ من خلال مسارها الخاص وأطلقته على باقى مسارات الشعوب الأخرى. فهى المركز وباقى الشعوب الأطراف. وحقبت التاريخ إلى قديم يونانى رومانى، ووسيط مسيحى مدرسى، وحديث ومعاصر. لم يأخذ اليونان شيئا ممن سبقتهم من الحضارات المصرية والبابلية والآشورية والكنعانية والفارسية والهندية. ولم يأخذ الغرب المسيحى شيئا من الحضارة الإسلامية التى يرجع فضلها فقط فى نقل الحضارة اليونانية لها عندما ترجمت من اليونانية إلى العربية بفضل نصارى الشام ثم ترجمت مرة ثانية من العربية إلى اللاتينية بفضل نصارى الأندلس خاصة فى طليطلة. وبطبيعة الحال لم يأخذ الغرب الحديث شيئا من الحضارة الإسلامية التى كانت

نموذجا للتخلف إبان الدولة العثمانية وكأن العمارة العربية الإسلامية لم تؤثر فى الغرب منذ أن اكتشف الغرب الشرق.

ثم وضعنا أنفسنا فى العصر الوسيط الغربى مع أن الحضارة الإسلامية لها تحقيبها الخاص، العصر الذهبى أولا عندما نشأت العلوم الإسلامية واكتملت فى القرون السبعة الأولى التى أرخ لها ابن خلدون فى "المقدمة" الشهيرة. ثانيا عصر الشروح والملخصات إبان العصر المملوكى العثمانى عندما دونت الحضارة بالذاكرة ما أبدعته من قبل بالعقل خوفا على نفسها من الضياع أمام هجمات الصليبيين من الغرب وجحافل التتار والمغول من الشرق. ودونت الموسوعات الكبرى فى شتى العلوم. ثالثا العصر الحديث الذى بدأ منذ فجر النهضة العربية فى القرن التاسع عشر بتياراته الفكرية الثلاثة: الإصلاح الدينى عند الأفغانى، والليبرالى عند الطهطاوى والتونسى، والعلمى العلمانى عند شبلى شميل.

فالغرب فى نهاية عصوره الحديثة ونحن فى بدايتها. ونحن فى بداية عصورنا الحديثة والغرب فى نهايتها. نحن مازلنا بين الإصلاح الدينى والنهضة، والغرب جاوز الإصلاح الدينى عند لوثر وكالفن، والنهضة عند جيوردانو برونو منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر. لا يعنى ذلك أن الغرب متقدم علينا أو أننا متخلفون عن الغرب، بل هى مسارات متعددة ومتعاصرة للشعوب مع اختلاف التحقيب. المهم أن تاريخ العالم لم يخل مرة من ريادة حضارة كما كانت مصر والصين والهند وفارس واليونان والعرب قبل ذلك حتى وصلت الريادة إلى الغرب الحديث.

ثانيا : الماضى القريب للوطن العربى.

بالرغم من محاولات القوميين العرب الذهاب إلى الماضى البعيد للبحث فى جذور تكوين الأمة العربية منذ نشأة الإسلام والدولة الأموية، وذهاب آخرين إلى الماضى الأبعد فى شبه الجزيرة العربية، أقوام عاد وثمود، وأهل حمير، ومملكة اليمن وسبأ، بل وحضارات بابل وآشور وكنعان ومصر القديمة، فالعروبة بلورة للعبقرية السامية عبر التاريخ، أدركت مصر فى القرن التاسع عشر أن البديل عن

الخلافة العثمانية فى حال تعذر إحيائها من مصر هم العرب حول مصر. وهو ما رآه إبراهيم باشا فى الشام ومحمد على فى السودان وفى شبه الجزيرة العربية فى حروبه مع الوهابيين لدعوتهم الانفصالية عن الدولة العثمانية. فالعرب حول مصر فى الشمال والشرق والجنوب. وقد كان المغرب العربى مواليا للعثمانيين حتى الجزائر، وكان طيعا خاليا من أى دعوات انفصالية. فالوطن والعروبة والإسلام فيه شىء واحد.

بعد ذلك نشأت حركة القوميين العرب فى أوائل القرن العشرين ورأت فيها الدولة العثمانية حركة انفصالية فدافعت عن وحدة الخلافة، وعلقت للقوميين العرب المشانق فى دمشق.

ولما هزمت تركيا فى الحرب العالمية الأولى وتقطعت أوصالها استولت القوى الاستعمارية الكبرى فى ذلك الوقت خاصة فرنسا وإنجلترا على الأقطار العربية، لفرنسا تونس والجزائر والمغرب وسوريا ولبنان، ولإنجلترا مصر والعراق والأردن وشبه الجزيرة العربية كله من اليمن وحضرموت جنوبا حتى فلسطين شمالا.

ولما انتصر الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية وأرادوا ملء الفراغ فى منطقة الشرق الأوسط بعد أن تعاطف العرب مع دول المحور وقامت ثورة رشيد على الكيلانى فى العراق تأييدا له، كما تعاطف مع بعض كبار الضباط فى الجيش المصرى مثل عزيز المصرى، أرادت بريطانيا إيجاد منظمة إقليمية تضم العرب ومعظمهم تحت إمرتها، احتلالا أم انتدابا أم وصاية. فنشأت فكرة الجامعة العربية وتأسست فى ١٩٤٥ كمنظمة إقليمية تجمع العرب فى إطار من التعاون مع بريطانيا. وقد نشأت كمنظمة دول وليست كتنظيم شعوب وكما يدل عليها اسمها "جامعة الدول العربية". كانت عاجزة منذ بداية تأسيسها. فقد واجهتها النكبة الأولى فى فلسطين فى ١٩٤٨. وكانت بعض دولها مازالت تحت الاحتلال البريطانى المباشر أو غير المباشر. تتنازعها أنظمة ملكية أو إماراتية أو سلطانية. ولم يكن النفط بعد قد أعطى العرب قوة اقتصادية. كما أن حركات التحرر الوطنى لم تكن قد قامت بعد بشكل واسع

باستثناء ثورة ١٩١٩ فى مصر، وثورة عز الدين القسام فى فلسطين فى ١٩٣٦، وبعض الهبات هنا وهناك مثل المقاومة المسلحة لجيش الاحتلال البريطانى على ضفاف القناة فى ١٩٥١، وضرب الفرنسيين دمشق بالقنابل فى ١٩٤٥.

وفى وسط الحرب الباردة قامت الثورات العربية بقيادة الضباط الأحرار فى الجيوش الوطنية منذ أواخر الأربعينات فى سوريا عام ١٩٤٩، وفى الستينات فى اليمن فى ١٩٦٤، وفى ليبيا فى ١٩٦٩. وانتهى المد الثورى العربى فى ١٩٧٠بوفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر. نشأت معظمها كرد فعل على هزيمة ١٩٤٨ فى فلسطين وكما عبرت عن ذلك المبادئ الستة فى البيان الأول للثورة المصرية.

كانت العروبة فى الشام جزءا من تاريخها منذ الأمويين حتى حركة القوميين العرب وتأسيس حزب البعث العربى الاشتراكى وبدء تأسيس الأيديولوجية القومية منذ ساطع الحصرى حتى ميشيل عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحورانى وغيرهم من أقطاب البعث. ولم تكن فكرة القومية منتشرة خارج الشام لظروف المناطق العربية. حمل لواءها نصارى الشام. ففى العروبة يتوحد النصارى والمسلمون فى حين أنه فى الإسلام يتوحد المسلمون وحدهم بالرغم من انتهاء ميشيل عفلق فى حزب البعث من أن الإسلام ثقافة العرب جميعا نصارى ومسلمين فى خطابه الشهير عن المولد النبوى "إذا كان محمد كل العرب فإن كل العرب محمد".

وتدرجت مصر فى تبنى القومية العربية منذ مقاومة الأحلاف العسكرية مع سوريا فى ١٩٥٤ حتى تأميم القناة فى ١٩٥٦. وقف العرب مع مصر وتفجير أنابيب النفط إلى أول تجربة وحدوية فى تاريخ العرب الحديث، الجمهورية العربية المتحدة ١٩٥٨-١٩٦١. وبالرغم من الانفصال فقد عززت قوانين يوليو الاشتراكية ١٩٦٢-١٩٦٣ التحول الاشتراكى فى الوطن العربى. وأصبحت القومية العربية إحدى أيديولوجيات التحرر فى العالم الثالث، وكان عبد الناصر هو المجسد لها. كما أصبحت ميزان الثقل فى عصر الاستقطاب، وكانت بؤرة دول عدم الانحياز مع الهند ويوغوسلافيا وأندونيسيا، وركيزة العالم الثالث فى القارات الثلاث، وفيها المركز

الرئيسى لمنظمة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا. ولعب العرب هذا الدور باقتدار. وأصبحت الاشتراكية العربية إحدى الأيديولوجيات الرائدة فى الفكر السياسى والعلاقات الدولية، بين الشيوعية فى الشرق والرأسمالية فى الغرب.

ثم وقعت الواقعة، هزيمة يونيو ١٩٦٧ والتى انكسر فيها الحلم العربى، واحتلت أراضى ثلاث أقطار عربية، مصر وسوريا وفلسطين. ومع ذلك صمد العرب فى مؤتمر الخرطوم باللاءات الثلاثة الشهيرة، لا صلح ولا مفاوضة ولا اعتراف بإسرائيل. وبالرغم من حرب الاستنزاف فى ١٩٦٨-١٩٦٩، ووفاة عبد الناصر فى ١٩٧٠، وتحت ضغط المظاهرات الطلابية فى ١٩٧٢ انتصر العرب، مصر وسوريا، فى حرب أكتوبر ١٩٧٣. وعاد التحالف العربى من جديد بين مصر وسوريا عسكريا، وبين مصر والسعودية نفطيا وذلك بحظر تصدير النفط. وربما ضحى الملك فيصل بحياته من أجل ذلك وبإصراره على الصلاة فى القدس المحررة.

ثم تحول النصر العسكرى فى أكتوبر ١٩٧٣ إلى هزيمة سياسية مازالت آثارها تتجلى حتى الآن. فقد صدرت قوانين الاستثمار فى ١٩٧٥ لتقضى على التجربة الاشتراكية فى مصر، وتعلن بداية التحول إلى الاقتصاد الرأسمالى فيما يسمى بالانفتاح الاقتصادى. وتم حل الاتحاد الاشتراكى وتحويل المنابر فيه إلى أحزاب سياسية من كنف الحزب الحاكم. ولما اندلعت الهبة الشعبية فى يناير ١٩٧٧ ضد غلاء الأسعار، وظهرت صور عبد الناصر من الإسكندرية إلى أسوان، قام السادات بزيارة القدس تحت الاحتلال فى نفس العام فى نوفمبر ١٩٧٧ للبحث عن أحلاف فى الخارج، إسرائيل وأمريكا بعد أن فقد الأحلاف فى الداخل، مصر الناصرية الإسلامية. ثم جاءت اتفاقيات كامب ديفيد فى ١٩٧٨، ومعاهدة السلام فى ١٩٧٩، وقادت مصر حركة التراجع عن القومية العربية تحت شعار "مصر أولا". وقطع العرب علاقاتهم مع مصر. وانتقلت الجامعة العربية إلى تونس. وزرع فى الجسد العربى قلب اصطناعى لم يستطع ضخ الدماء فى الأطراف. وتوقف الجسد العربى.

وقامت الثورة الإسلامية فى إيران فى فبراير ١٩٧٩ لتجديد الناصرية وتركيبها على الإسلام بعد أن أزاح عبد الناصر الإخوان والشيوعيين منها، فحكمت بمفردها وفى فراغ لم تستطع تنظيمات الثورة ملأه، هيئة التحرير، والاتحاد القومى، والاتحاد الاشتراكى فى الجمهورية الأولى، ولا حزب مصر، والحزب الوطنى الديموقراطى فى الجمهورية الثانية، ولا أحزاب الورق الاثنى عشر فى الجمهورية الثالثة. كان عبد الناصر من كبار المؤيدين للخمينى قبل الثورة فى معارضة للشاه عميل الاستعمار المتحالف مع الصهيونية. وكان يمد مجاهدى الخلق بالسلاح عن طريق بغداد للثورة على الشاه. ولما سقط ولم يجد له مكانا يطوى ثراه انزعج الاستعمار وارتعشت الصهيونية لإمكانية قيام جبهة شمالية من إيران والعراق وسوريا ضدها. وزاد العمق العربى بالمحيط الإسلامى، وعادت للثورة العربية روحها الأولى بالإضافة إلى حشد الملايين فى الشوارع، والأيديولوجية الإسلامية، وقيادة سياسية لا تلين ولا تساوم.

ثم قام العراق تحت ستار القومية العربية بطعن الثورة الإسلامية فى الظهر بدعوى تحرير عرب الأهواز فى عربستان وهى فى ذروة صراعها مع الولايات المتحدة الأمريكية. قام العراق بالعدوان بإيماء من أعداء الثورة الإسلامية، وعدوها الأول، الشيطان الأكبر، والطاغوت الأعظم، الولايات المتحدة الأمريكية. واستشهد الآلاف من المسلمين على جانبى الجبهة. ودمرت مئات المركبات والمصفحات والدبابات وقطع المدفعية. فأين الجبهة على حدود إيران فى الشرق أم على حدود فلسطين فى الغرب؟ ركب العراق الحصان الخاسر ففرق العرب. وخشيت دول الخليج أن تساعد العراق باسم العروبة فتخاطر بعداوة إيران باسم الإسلام، أو أن تساعد إيران باسم الإسلام فتخاطر بعداوة العراق باسم العروبة. فساعدت الطرفين وازدادت النار اشتعالا، وطال أمد الحرب. وانقسم العرب فريقين. الأول يناصر إيران المعتدى عليها ضد العراق المعتدى. فالحق حق. والعراق جناح خائن من حزب البعث ومارق عليه. والثانى يناصر العراق ضد إيران، فالعراق هو بوابة العرب الشرقية. لو انهارت انهار الجدار الشرقى للمنزل العربى. ولو انتصرت إيران لعمت

الثورة الإسلامية الأقطار العربية أو على الأقل لقويت شوكة الجماعات الإسلامية فيها، وهى المطاردة من أجهزة الأمن والمقصاة من النظام السياسى.

وتوالت المصائب على العرب بعدها. فلم تكن حرب أكتوبر فى ١٩٧٣ آخر الحروب بل كانت بداية لسلسلة من الغزوات الإسرائيلية على الوطن العربى مثل غزو جنوب لبنان، واحتلال بيروت فى ١٩٨٢، وضرب المفاعل النووى العراقى فى ١٩٨٤، وتم حصار ليبيا فوق ما يزيد على العشرات سنوات، والعرب عاجزون عن فك الحصار. وكان الزعماء الأفارقة أكثر قدرة منهم عليه بزياراتهم المتكررة إلى ليبيا من الجنوب مما دفع ليبيا إلى التوجه إلى أفريقيا كبديل عن العرب، وتحويل منظمة الوحدة الأفريقية إلى الاتحاد الأفريقى.

وبمجرد ما قامت الانتفاضة الفلسطينية الأولى فى ١٩٨٧، وانتبه العالم إلى ثورة أطفال الحجارة، اغتالت إسرائيل أبو جهاد فى تونس ظانة أنها تستطيع إخماد الانتفاضة. واعتدى العراق مرة ثانية عام ١٩٩٠ على جارته العربية الكويت، المحافظة التاسعة عشرة الجنوبية للعراق، منكرا الوجود التاريخى الشرعى لها وتحت ذريعة شفط النفط من حقول العراق وتخزين أموال قارون. وبإيعاز ثان من الولايات المتحدة الأمريكية لإيقاع العراق مرة ثانية حتى يسهل ذبحه والتخلص منه احتل قطر قطرا عربيا آخر، ولم يستطع العرب تحقيق المصالحة بينهما. وانقسم العرب مرة ثانية فى حرب الخليج الثانية كما انقسموا أولا فى حرب الحليج الأولى بين مؤيد لقوات التحالف مثل مصر وسوريا، ركيزتى القومية العربية ومفجرى الثورة العربية، ومعارض لها مثل ليبيا واليمن. وانقسم العرب فى مؤتمر القاهرة عام ١٩٩٠، وشرّعوا للعدوان على العراق بفارق صوت واحد. ثم دخلت القوات العربية، جنبا إلى جنب مع القوات الأمريكية. فقتل الأخ أخيه، وأراق العربى الدم العربى على عكس عبد الناصر الذى ضحى بالوحدة مع سوريا أثناء وقوع الانفصال وأرجع قواته المحمولة جوا والمتجهة إلى اللاذقية التى كانت مازالت مع الوحدة حتى لا يريق العربى دم العربى. وطُردت القوات العراقية خارج الكويت، وانهزم العراق، وحوصر دوليا

بقرارات من الأمم المتحدة. وذاق مر الهوان والجوع ثلاثة عشرة عاما. وكانت الضربة القاضية ضد العروبة والعرب بعد ان احتل قطر عربى قطرا عربيا مجاورا وبعد أن حارب العربى العربى. فأين المعركة؟

وانتهى عصر الاستقطاب فى ١٩٩١. وانهار النظام الاشتراكى الشمولى ابتداء من أوروبا الشرقية حتى وصل إلى موسكو ذاتها عاصمة المعسكر الشرقى والاشتراكية الدولية. وتفرد بالعالم قطب واحد، الولايات المتحدة الأمريكية. وبدأت تبحث عن شرعية جديدة للنظام الرأسمالى بعد انتهاء الحرب الباردة. فوجدتها فى العولمة، وقوانين السوق، ونهاية التاريخ، وثورة الاتصالات، والعالم قرية واحدة. وهى مفاهيم تعبر عن أشكال جديدة للهيمنة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. ومن يخرج على بيت الطاعة فجزاؤه أن يدخل إليه بالقوة سواء بموافقة الأمم المتحدة وبغطاء شرعى منها أو بدونها. فالقوة تصنع الحق، وتفرض شرعية المنتصر. وصدرت أمريكا للوطن العربى جدول أعمال آخر فى بنوده: الإدارة العليا Governance، المجتمع المدنى، حقوق الإنسان، حقوق المرأة، حقوق الأقليات، التحول الديموقراطى، ثقافة السلام، تحديث التعليم. وبدأ ضخ الأموال فى المنظمات الأهلية لتحقيق ذلك. ومع ذلك، ظل محدود الأثر، عمل نخبة من المثقفين الليبراليين. لا يجتهدون فى وضع جدول أعمال وطنى بديل مثل الدولة الوطنية المستقلة، المواطنة، تحرير الأرض، العدالة الاجتماعية، التنمية المستقلة، توحيد الأمة، الهوية الثقافية، حشد الجماهير.

وبدأ العرب يحزمون أمرهم للدخول فى عصر العولمة. ووقع البعض منهم على اتفاقية الجات. وفتح الأسواق للاستيراد، وأسقط حواجزه الجمركية. يستورد أكثر مما يصدر. فأين لهم بقوانين السوق، المنافسة والربح، وبالدول المصنعة، مجموعة الثمانية؟ أين لدول الأطراف بالمنافسة المتكافئة مع دول المركز؟ وبدأ ابتلاع الوطن العربى فى الاقتصاد العالمى، ثرواته ونفطه وأسواقه وخبراته البشرية. وظلت السوق العربية المشتركة حبرا على ورق منذ ١٩٥٤ وحتى الآن. وظلت

مجموعة الثمانية والعشرين من بعض الدول الأفريقية الأسيوية على مستوى الخطابة والشعور. ولم تقم منظمات إقليمية مثل السوق الأوروبية ثم الاتحاد الأوروبى، تقف فى مواجهة السوق الأوحد، سوق العولمة.

وفى هذا الإطار قامت الانتفاضة الثانية، انتفاضة الأقصى بعد زيارة شارون للحرم الشريف فى القدس فى سبتمبر ٢٠٠٠، وتحول الحجر إلى سلاح. واجتاحت إسرائيل الضفة الغربية كلها، مدنها وقراها، حضرها وريفها بعد أن عجزت عن إيقاف الانتفاضة. وصمدت المقاومة، وحققت بطولات فى المخيمات وفى مقدمتها جنين. ومع تحرير جنوب لبنان بفضل حزب الله، وبفضل العمليات الاستشهادية للمقاومة الفلسطينية خاصة سرايا القدس، وطلائع فتح، وحماس، والجهاد، عاد للعرب ثقتهم بالنفس، وقدرتهم على مواصلة النضال من أجل تحرير الأرض، خاصة بعد فشل محاولات التسوية فى أوسلو ومدريد.

ثم وقعت حوادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، واهتز المجتمع الأمريكى. وطعنت أمريكا فى الصميم. فبعد أن كانت تنتظر العدو من أبعد الآفاق، وتخطط لحرب النجوم، وتصنع الصواريخ العابرة للقارات، جاءتها الضربة من حيث لا تتوقع، وبأسهل الطرق، وبأضخم الخسائر. ثم قام العدوان الأمريكى على أفغانستان لرد الكرامة، وعودة الغرور. وقتل النساء والأطفال باسم القضاء على الإرهاب. وتعاونت قوات الشمال من الأفغان مع الغازى الأمريكى ضد الطالبان.

واستمراراً فى العدوان، وتحت ذريعة نزع أسلحة الدمار الشامل، وإيواء العراق لمنظمات الإرهاب تم العدوان على العراق وتسليم بغداد، ضد الشرعية الدولية، ووسط العجز العربى. أوروبا وروسيا احتجت قبل العدوان. وكلاهما ينتظر عقود الإعمار بعد العدوان. وعجز العرب عن مد يد العون للشقيق العربى، فلديه نظام قمعى يصعب الدفاع عنه. وما ذنب شعب العراق وتاريخه ومتاحفه وجامعاته ومكتباته؟ ونعى البعض النظام العربى ومؤسساته الإقليمية. وتخوف البعض الآخر. فعلى من تدور الدائرة اليوم؟ وجمّل فريق ثالث نظامه القمعى بإجراءات ديموقراطية

شكلية مثل إلغاء محاكم أمن الدولة العليا، وإلغاء الأشغال الشاقة. وطالب البعض بمجالس شورى أقوى تحاسب وتقيل. وماذا ينفع الشكل الديموقراطى والمضمون القمعى؟

ثالثا : حاضر الوطن العربى.

وحاضر الوطن العربى هو حصيلة ماضيه القريب. البعض يتوقع من المتشائمين السيناريو الأسود فى السنوات الخمس القادمة. وفى رأى الأمريكيين هو السيناريو الأفضل فى السنوات العشر القادمة. فقد يتكرر نموذج العراق على إيران حتى يقضى على النموذج الثورى الديموقراطى الإسلامى، ولا يبقى إلا نموذج القمع العربى. والذريعة حاضرة، تطوير إيران للمفاعل النووى فى خورمشهر، والتعاون النووى مع روسيا، وإيواء بعض عناصر تنظيم القاعدة، ونظام القمع الذى يفرضه المحافظون مما يستلزم القضاء على النظام الإصلاحى الذى يقوده الرئيس حتى يتم التشويه المطلق للعدو ومحو كل فضيلة فيه.

ثم يأتى الدور على سوريا حليفة إيران وبغداد. فقد هرب إليها قادة العراق. وهرَبوا إليها أسلحة الدمار الشامل. وساعدت العراق بمناظير الرؤية الليلية. وهى معبر الأسلحة من إيران إلى حزب الله فى جنوب لبنان. ومازال اسمها مدرجا فى قائمة الإرهاب. ترفض كل مشاريع التسوية للصراع العربى الإسرائيلى. ولا تبتعد كثيرا عن نظام القمع فى العراق، وملفات حقوق الإنسان القائمة. تحتل لبنان منذ نهاية الحرب الأهلية. والفساد فى جهاز الدولة. والنظام جمهورى ملكى وراثى.

ثم يأتى الدور بعد ذلك على لبنان من أجل انسحاب قوات حزب الله من الجنوب. فمازالت تهدد إسرائيل. وتستعد لتحرير مزارع شبعا. وتطلق الكاتيوشا على شمال إسرائيل. وترفض كل مشاريع التسوية، ولا ترضى بالمقاومة بديلا. وتمثل نموذجا ناجحا للمقاومة ضد العدوان الخارجى، وللبناء الديموقراطى، والمجتمع المدنى. تزكى روح الوطنية عند اللبنانيين من أجل تجاوز المذهبية

والطائفية. وتقوى الفلسطينيين، وتدفعهم إلى الصمود وعدم التنازل ليس فقط عن الأراضى المحتلة بل عن كل فلسطين. وتعادى أمريكا ونظام القطب الواحد. ولا تستسلم للعولمة وقوانين السوق. تمثل دولة داخل الدولة، ونموذجا أهليا عربيا يحتذى به فى المقاومة والبناء.

ثم تدور الدائرة على ليبيا بعد حصار لها دام حوالى خمسة عشر عاما. فهى مازالت أيضا مثل سوريا مدرجة فى قائمة الإرهاب، ومتهمة بتفجير طائرة لوكيربى. وتدعم الإرهاب فى كل مكان، من الفلبين شرقا حتى الأرجنتين غربا. ولا توجد مصيبة تقع على الأرض إلا وكانت ليبيا ضالعة فيها. نظامها أتوقراطى، أطول نظام عربى قارب على خمس وثلاثين عاما. لا يعرف ماذا يعنى تداول السلطة. نظام متقلب المزاج من التطرف الحاد فى القومية العربية ثم الكفر بها إلى تطرف حاد آخر نحو الوحدة الأفريقية، وقد يكفر بها، من تدعيم كامل للقضية الفلسطينية إلى طرد الفلسطينيين خارج ليبيا بعد مدريد وأوسلو وإنشاء الدولة الفلسطينية وتركهم على الحدود بين مصر وليبيا، فى العراء كما فى فيلم "الحدود" لدريد لحام. تعطى الأولوية لأيديولوجيا "الكتاب الأخضر" على مصالح الناس. ترفض الديموقراطية التمثيلية لأن "التمثيل تدجيل". وتفضل الديموقراطية المباشرة عن طريق اللجان الشعبية. وهو باختصار نظام لا يتفق مع مقتضيات العولمة!

ثم يأتى الدور على السعودية، الصديق التقليدى. نظامها يُفرّخ الإرهاب. فالنقيض يولد النقيض. والتأخر فى التحول الديموقراطى يولد إرهابا مضادا وقمعا بديلا ممثلا فى جماعات العنف والتفجيرات وقتل الأبرياء، أجانب وعرب. هى نموذج العصور الوسطى، السلطة المطلقة للملك، وسيطرة رجال الدين، والتفسير الحرفى للنصوص، وطلب الطاعة المطلقة، وتكفير المخالفين. نظامها مثل نظام الإمامة فى اليمن قبل الثورة اليمنية فى ١٩٦٤. يعمها الجهل باسم الدين. وفتاوى علمائها خارجة من أقبية التاريخ. فمازالت الأرض ثابتة، والشمس تدور حولها. ومازالت الأرض مسطحة لا كروية. هكذا تبدو الأشياء للعيان. وهكذا يفسر القرآن تفسيرا حرفيا. وبالإضافة إلى القمع، يضاف فساد القصور، ومجون الأمراء، وفضائح لندن.

ومصر أيضا مستهدفة. وهى نموذج الحليف، مع السعودية، وربما إسرائيل، للولايات المتحدة الأمريكية. فهى تقوى الفلسطينيين، وتدفعهم إلى الصمود وعدم التنازل عن حق العودة بالنسبة للاجئين. هى التى دفعتهم إلى رفض ورقة كلينتون. وتميز بين الإرهاب والمقاومة وفى رأى الأمريكيين أن كل مقاومة إرهاب. مازال السلام بينها وبين إسرائيل سلاما باردا. شعبها يقاوم التطبيع. وإعلامها معاد لإسرائيل. سياح كثير من إسرائيل لمصر، ولا سائح مصرى واحد إلى إسرائيل. ومن تجرأ وفعل فُضح وفُصل من اتحاده أو نقابته. لم تستطع القضاء على جماعات الإرهاب فيها. ومازالت تحاول الحفاظ على الحد الأدنى من كرامة العرب. بها الجامعة العربية، بيت العرب. مازالت تلم الشمل وتحرص على استقلال الدول ووحدة أراضيها. مثقفوها الوطنيون يقاومون العولمة وقوانين السوق، ويقفون بالمرصاد للمخططات الأمريكية فى المنطقة.

وأخيرا يأتى الدور على اليمن والسودان. فمهاجمة المدمرة كول كان من تدبير اليمنيين. ومازالت تتمسك بالقومية العربية. ساندت العراق، ومازال تدعم المقاومة الفلسطينية. حافظت على وحدة التراب الوطنى بالسلاح. وتتمسك بثورة ١٩٦٤ مع أن العهد قد طال عليها. رئيسها معمَر فى اليمن مثل الرئيس معمَر فى ليبيا. يختطف فيها السياح الأجانب. ومازالت فيها روح الثورة، ولم تتخل عن مبادئها بعد.

أما السودان، فبالرغم من محادثات ماشاكوس، ونية إقرار السلام بين الشمال والجنوب بمباركة أمريكية فمازال اسمه مدرجا فى قائمة الإرهاب. وبالرغم من التخلص من أحد رأسى النظام إلا أن معسكرات التدريب للجماعات الإسلامية مازال مستمرا، جمع بين القمع العسكرى والقمع الدينى، بين الجيش وقريش. مؤسسات المجتمع المدنى فيه واهية. وملفات حقوق الإنسان لديه ليست براقة.

وفى غياب الحليف الروسى أو الصينى أو الأسيوى التقليدى الذى وقف بجوار العرب فى الخمسينات والستينات حتى إنشاء الدول الوطنية ببرامجها

الاشتراكية والتنموية، يُخطط للوطن العربى مزيدا من التقسيم والتجزئة والتفتيت إلى فسيفساء طائفى أو مذهبى أو عرقى. وتنتهى قصة الدول الوطنية التى طالما قاومت الاستعمار والصهيونية ووحدت الشعب وجندت الوطن خلف مشروع قومى نهضوى.

يُخطط للوطن العربى الآن أن يكون فسيفساء من الدويلات المذهبية والطائفية والعرقية لتحقيق أهداف الحرب الأهلية فى لبنان على الصعيد العربى كله. فالعراق دويلات ثلاث، شيعة فى الجنوب، وسنية فى الوسط، وكردية فى الشمال. والخليج دويلات شيعية وسنية، إمارات مذهبية جديدة. وعمان إباضية وسنية. واليمن زيدية وشوافع. شمال وجنوب من جديد. والسعودية نجديون وحجازيون. والمغرب العربى، عرب وبربر، والسودان مسلم فى الشمال ومسيحى وثنى فى الجنوب.

ويعم التقسيم بعض الدول الأفريقية ففى تشاد ومالى ونيجريا شمال مسلم وجنوب، أقل أو أكثر ليس كذلك. الشمال يطبق الشريعة الإسلامية ويعنى هذا التطبيق الحدود وليس الحقوق، يخرق الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، الجنوب يرفض والشمال يصر حتى ولو وقع الانفصال بين الشمال والجنوب. فالدين أولى بالحفاظ من الوطن.

وهو نفس المخطط أيضا فى الدول الإسلامية فى آسيا، فى تركيا بين الأكراد والأتراك، وفى إيران بين سنة وشيعة، فرس وأذر. وفى باكستان وأفغانستان اشتون وطاجيك. وقد بدأ الانفصال فى أندونيسيا بتيمور الشرقية وآتشيه فى الطريق. وماليزيا بين ماليين وصينيين وهنود.

وعلى هذا النحو تصبح إسرائيل هى أقوى دولة طائفية عرقية فى المنطقة. وتأخذ شرعية جديدة من الواقع الجغرافى السياسى الثقافى المحلى بدلا من أساطير التأسيس الأولى، أرض المعاد ، وشعب الله المختار. وتصبح إسرائيل، وليست فلسطين، من البحر إلى النهر. والنهر هذه المرة ليس الأردن بل دجلة والفرات. وتتحقق لها نبوءة أرض المعاد، من الفرات إلى النيل، إسرائيل الكبرى التى ليس لها حدود إلا ما تستطيع أن تصل إرادتها وطموحاتها وجيشها وأجيالها إليه.

وتقوم إسرائيل فى المحيط العربى الجديد بدور أداة التحديث للمنطقة بدلا من مصر فى شرق أوسطية جديدة تكون إسرائيل فيه المركز أو فى متوسطية جديدة تكون إسرائيل فيه أيضا القلب. وكما لها نصيب فى مياه دجلة والفرات يكون لها نصيب فى آبار نفطه ونفط الخليج. وتتحول العراق ومدن العرب إلى نماذج من هونج كونج وتايوان وسنغافورة لرأس المال الأمريكى والعقل اليهودى والسواعد والأسواق العربية.

رابعا : مستقبل الوطن العربى.

وهو السيناريو الأفضل الذى يعبر عن نوع من التفاؤل اعتمادا على صمود العرب فى التاريخ. وهو أن العالم العربى سيتجاوز محنه فى الماضى القريب وسيعلو على محنته فى اللحظة الراهنة استعدادا لمرحلة قادمة بدأت تتشكل ملامحها. فقد صحا الشعب العربى بعد غزو العراق وتسليم بغداد. وبدأت تتجمع بوادر وحدة وطنية من أجل انسحاب قوات الغزو بعد تفويت الفرصة على المخطط الأمريكى الصهيونى بتقسيم العراق، بداية لتقسيم المنطقة كلها، ووضع خريطة جديدة للمنطقة بعد خريطة سايكس بيكو الأولى بعد الحرب العالمية الأولى. بل إن بوادر المقاومة المسلحة قد ظهرت أيضا فى العراق بطريقة حرب العصابات التى كثيرا ما تنجح أمام جحافل الغزو كما حدث فى فيتنام فى الستينات وكما يحدث الآن على أرض فلسطين والشيشان وكشمير.

وتلتقى صحوة الشعب العربى مع صحوة الشعوب الإسلامية فى أفغانستان وباكستان وآسيا الوسطى والفلبين وأندونيسيا وماليزيا والهند وإيران وتركيا وأوروبا الشرقية بل والمسلمون فى أوروبا وأمريكا وأفريقيا. ويتم توسيع مفهوم القومية العربية بحيث يضم الجبهات المساندة لها فى إيران وتركيا، فى آسيا وأفريقيا، وكما فعل عبد الناصر فى تصور الدوائر الثلاث، العربية والأفريقية الأسيوية والإسلامية، وكما تصور مالك بن نبى فكرة الأفريقية الآسيوية.

إن العرب فى حاجة إلى حركة تحرر عربية إسلامية ثانية بعد الحركة الأولى فى الخمسينات والستينات. لقد شاخت النظم العربية الآن بعد أن جاوزت نصف القرن. بقى النظام كما هو وربما بنفس أشخاصه فى حين نشأت على الأقل ثلاثة أجيال وراءه. فلم تعد القيادة التاريخية القديمة قادرة على فهم متغيرات العصر الجديدة ومتطلبات أجياله. ومن لا يتقدم يتأخر، ومن لا يخطو خطوة إلى الإمام يتراجع خطوات إلى الوراء. والثعبان الذى لا يغير جلده يتقلص ويموت.

إن العرب فى حاجة إلى نهضة عربية ثانية بعد النهضة العربية الأولى منذ قرنين من الزمان. تبدأ بإعادة بناء الثقافة الوطنية لإرساء قواعد نهضة عربية ثانية تتجاوز نخبوية رواد النهضة العربية الأولى، وتبنى النموذج الغربى لها: الملكية المقيدة بالدستور التى تقوم على التعددية الحزبية والبرلمان والصحافة الحرة والوزارة المسئولة، وتعليم البنات والبنين، ومؤسسات المجتمع المدنى، والمنظمات الأهلية. وهو النموذج الذى تبنته التيارات الفكرية الرئيسية الثلاثة، الإصلاح الدينى الذى أسسه الأفغانى، والتيار الليبرالى الذى أسسه الطهطاوى فى مصر وخير الدين التونسى فى تونس، والتيار العلمى العلمانى الذى أسسه شبلى شميل فى مصر والشام. فبالرغم من اختلاف البدايات والمنطلقات، الدين والدولة والمجتمع إلا أن النهايات واحدة.

النموذج الجديد يهدف إلى نزع جذور التسلط فى الموروث الثقافى من أجل إرساء قواعد الحرية فى العقل أولا، وفى المجتمع ثانيا. ويتم ذلك بتغيير التصور للكون القديم، والقضاء على التصور الهرمى للعالم الذى يقوم على التراتبية فى القيم، ويجعل العلاقة بين طرفين، علاقة رأسية، بين الأعلى والأدنى، وليس علاقة أفقية بين الأمام والخلف. ويتجاوز النظام المعرفى القديم الذى يقوم فيه العقل بتبرير المعطيات السابقة دون نقدها، وبتنظيرها دون تحليلها، وبقبولها على أنها حق دون بحث عنها. ومن ثم يمكن الانتقال من التبرير إلى النقد، ومن القبول إلى الرفض، ومن الطاعة إلى الاعتراض، ومن السلطة إلى المعارضة.

وبعد إرساء قواعد الحرية فى الضمير تُرسى قواعد التعددية السياسية على شرعية الاختلاف. فالاختلاف والتعدد جوهر الحياة الإنسانية والطبيعية ﴿ولكل جعلنا شرعة ومنهاجا﴾، ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم﴾، والتخلى مطلقا عن حديث الفرقة الناجية الذى يشكك فى صحته ابن حزم فهو ضد روح الأمة، وتعدد الصواب "أصحابى كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم".

ويُعاد بناء المؤسسات الإقليمية العربية كى تصبح مؤسسات شعوب لا دول، ونظماً إقليمية تضم مؤسسات المجتمع المدنى العربى. فقد ساهمت الجامعات والاتحادات فى الوحدة الألمانية. فالوحدة فى التصور والإرادة قبل أن تكون فى المواثيق والنظم.

والبداية من أسفل لا من أعلى، من حياة الناس وليس من مؤتمرات القمة. وقد بدأنا مشاريع الوحدة ومنظماتها قبل السوق الأوروبية المشتركة والاتحاد الأوروبى. يكفى إلغاء تأشيرات الدخول فى الوطن العربى، وإلغاء قوائم الممنوعين من السفر عبر الحدود، وحرية التجارة والتصدير، وإلغاء الحواجز الجمركية، وحرية انتقال المطبوعات، وإلغاء الرسوم على الطلاب العرب للدراسة فى الجامعات العربية، وإقامة شركة طيران عربية واحدة، وشركة نقل برى عربى واحدة، وشركة بواخر لنقل الركاب والبضائع واحدة، وشبكة اتصالات عربية واحدة. فالوحدة تُصنع على الأرض بالفعل ولا تصاغ فى المواثيق بالكلام. وإلا فلماذا يُتهم العرب بأن عبقريتهم صوتية، وبأن حضارتهم حضارة كتاب، كما قال محمود درويش:

واحتمى أبوك بالنصوص

فدخل اللصوص.

إن العالم كله يصحو بعدما رأى من مخاطر العولمة كأحد الأشكال الجديدة للهيمنة. فقامت مظاهرات سياتيل وجنوه ولندن وباريس وبراج ودافوس ضدها دفاعا عن حقوق الشعوب المنهوبة، ودفاعا عن حقوق العمال المهضومة باسم الثورة

الآلية الصناعية الجديدة. وتصحو أوروبا ضد مخاطر الهيمنة الأمريكية الاقتصادية والسياسية والثقافية. والثورة الفرنسية لم تمت بعد. كما تصحو أفريقيا خاصة جنوب أفريقيا كى تناضل من جديد دفاعا عن حقوق الشعوب.

وتصحو آسيا ابتداء من اليابان والصين وروسيا، أكبر تجمع بشرى صناعى. الصناعة اليابانية والسوق الصينية، والمواد الأولية الروسية. وستتجاوز هونج كونج وتايوان النماذج البريطانية الأمريكية القديمة لتصبح جزءا لا يتجزأ من نهضة الصين الحديثة. وستظل النمور الأسيوية قادرة على القيام من كبوتها، والمؤامرات الأمريكية على عملتها. وتنهض ماليزيا وأندونيسيا وسنغافورة وأواسط آسيا بالرغم من القواعد الأمريكية فى قازكستان لحصار الصين وروسيا، والوجود بالقرب من نفط بحر قزوين فى الشمال.

إن قطبا جديدا يتشكل الآن فى الشرق، ابتداء من المنطقة العربية الإسلامية فى أفريقيا وآسيا حتى اليابان والصين فيما يعرف باسم "ريح الشرق". وهو قادر على التشكل كقطب ثان فى مواجهة القطب الأوحد، الولايات المتحدة الأمريكية، لذلك يتم التركيز عليه بالحصار الاقتصادى والعدوان العسكرى، والتآمر على الاستقلال الوطنى. ومستقبل الوطن العربى مرهون بالتحالف مع هذا القطب الصاعد بعيدا عن المفهوم الضيق للقومية العربية الذى ساد إبان القرن العشرين.

إن العولمة لن تبقى. وقد تجهض وهى مازالت فى بدايتها، فالمجتمع الرأسمالى يحتوى على تناقضاته فى داخله بين الشركات المتعددة الجنسيات، والفساد، والركود، والجريمة المنظمة، والعنف الداخلى، ونسق القيم المادى الاستهلاكى. المهم أن يعى العرب قوانين التاريخ لمسارهم ومسار غيرهم، من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل.